

هدية لمكتبة شبكة مشكاة الإسلامية

مجلة البيان - العدد ١ ذو الحجة ١٤٠٦ هـ أغسطس ١٩٨٦ م

الافتتاحية
كلمة في المنهج

- التحرير -

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعود بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد:

فإن الدعوة إلى الله هي مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ثم هي مهمة أتباعهم عبر القرون ، فما بعث الله نبياً قط إلى قومه إلا بادأهم بهذه الكلمة المدوية: ((اعبُدُوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)) ، ثم ينطلق في تغيير جميع الانحرافات السياسية أو الاقتصادية أو السلوكية أو غيرها ، من منطلق العقيدة.

ومنذ وجدت البشرية على الأرض ، والصراع بين الحق والباطل ، والخير والشر قائم لا ينقطع ، والصدام بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان دائم لا يزول ، فريق نصب نفسه داعية للنوازع الأرضية ، والشهوات النفسية والجسمية ، ورهن حياته من أجل إرساء كل ماله علاقة بتقديس الذات ، وبعث غرائز الأثرة والتسلط والقهر لغيره من يضعفهم ، وفريق - وهو القلة والصفوة - نصبوا أنفسهم للوقوف في وجه تيار المفاسد المندفعة التي تحط من قيمة الإنسان - كمحلوق كرمه الله - وأنفقوا حياتهم وما يملكون من أجل أن يصعدوا بهذا الإنسان إلى القمة ، وينقذوه من الضلال عن منهج الله ، ومن الشهوات وعواقبها التي تمثل بالشقاء الناتج عن فقدان الطمأنينة والأمن عندما يعجب الإنسان بعلمه ورأيه ويكفي بذلك منقطعاً عن توجيه الله وهدايته.

هذا الفريق هم الأنبياء والرسل والمصلحون الذين ساروا على طريقهم واتخذوهم قدوة ومثلاً أعلى لهم.

وإن جوهر دعوة الرسل وأتباعهم واحد لا يتعدد ، وكل ما أمروا به من صالح العمل وما نهوا عنه من فاسد مرتبط بهذا الجوهر ارتباط النتيجة بالسبب ، وجوهر هذه الدعوة هو إثبات وجود الله عز وجل ، وإفراده بالعبادة:

((ولَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنَّ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَبَبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالُ فَسَيِّرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)). (النحل ٣٦).

((وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)). (الأنبياء ٢٥).

ولقد كانت الوظيفة الأساسية للدعاة والمصلحين هي تبليغ الناس وإرشادهم إلى هذه الطريق التي سلكها أنبياء الله ورسله ، وكانت هذه الوظيفة نتيجة تفاعل حي بين هذا الركب الكريم وبين المجتمعات التي عاشوا فيها ، فقد برزت عناصر الدعوة متمثلة بنماذج واقعية للعمل الصالح.

ورسالة الإسلام ليست بداعاً بين الدعوات ، بل هي الرسالة المتضمنة لكل ما في الرسائلات السابقة من عناصر ليست مرتبطة بزمن معين وجماعة محددة ، فجاءت رسالة الإسلام حينما بلغت البشرية سن الرشد ، لتكون شاملة للنشاط البشري يرمته من جميع زواياه، سواء من جهة العقيدة أو السلوك أو التشريع.

وإن الذي ينبغي أن يتتبه إليه الدعاة من المسلمين هو هذه الحقيقة البسيطة الواضحة في معناها ، والكثير في دلالتها ، وهي أن الإسلام هو الحق ، وأن ما عده هو الباطل وقد حسم الله في كتابه هذه الحقيقة فقال:

((وَمَن يَبْتَغِ عَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُفْلِلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)) (آل عمران ٨٥).

((وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَنَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَاحُوكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقَوْنَ)) (الأنعام ١٥٣).

وقد أanax الله كلمة إنقاذ البشرية بهذه الأمة فقال:

((كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجْتُ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...)) (آل عمران ١١٠).

وإذا لم تكن هذه الأمة على مستوى المسؤولية التي أنيطت بها ، والأمانة التي أنسنت إليها ، فإن هذا نذير لها بالضعف والاضحالة.

غير أنه من فضل الله على هذه الأمة أنه لا يخلها من طائفة قائمة بالحق تدعو إليه لا يضرهم من خالفهم أو من خذلهم حتى تقوم الساعة وهم على ذلك.

هذه الطائفة هي الدعاة إلى الله ، الذين امتلأ بهم تاريخ هذه الأمة ، وحفلت بأخبارهم صفحاته المجيدة ، وهم ورثة الأنبياء الذين يحملون هذه الدعوة جيلاً بعد جيل ، وينقلونها بكل أمانة ، لا يعبأون بالصعب التي تعترضهم ، ولا بالشياطين والطغاة الذين ينسبون لهم شتى أنواع العداوة والكيد والإرصاد.

وإن مهمة الدعاة الأولى هي التبليغ ودعوة الناس إلى هدي الله ، وهذه المهمة العظيمة لا بد أن يرافقها وعي دائم ومتجدد بحاجات الناس وتغيير أساليب مخاطبتهم.

وفي هذا العصر نجد أن الدعوات الهدامة قد استخدمت كل الوسائل المعروفة في مخاطبة الناس والتأثير على عقولهم ، بل استحدثت وسائل جديدة هدفها الهيمنة على حرية التفكير والاختيار ، في الوقت الذي تدعى فيه تبني هذه الحرية والعمل من أجلها في الوقت الذي لا تزال فيه أساليب الدعوة مقتصرة على الوسائل التقليدية ، ولا يزال الجهد الأكبر للدعاة منصبًا على الخطاب والمواعظ التي تستهلك الجهد ، و تستنفذ الوقت بعيداً عن التخطيط والإعداد ودراسة حاجات كل مجتمع على حدة ،

وعناصر تكوينه ومحاولة الكشف عن أنجح الوسائل التي تفيد في جعله أكثر استجابة.

ونحن لا نريد التهويين من شأن الخطاب والمواعظ ، ولكننا نقصد التنبيه إلى أن الاقتصار على هاتين الوسائلتين فيه هدر للطاقة ، وتضييع للجهود وتخلف عن ركب العصر وعدم تلاؤم القضايا المطروحة - مهما كانت مهمة ومصيرية - مع تفكير الناس وشعورهم إذا ما اقتصر عرضها على مثل هذه الوسائل.

ونظرة فاحصة إلى حصاد الدعوة الإسلامية في العصر الحديث ؛ ترينا كيف أن تخلف الدعوة في استخدام الوسائل الفعالة نتج وينتج عنه تخلف في تحقيق الأهداف. وبينما نجد إعلام الكفر بشتى أشكاله إعلاماً منظماً مدروساً ؛ يؤسفنا أن نرى الإعلام الإسلامي إعلاماً قائماً على الفوضى ، مستغلًا في بعض جوانبه من أجل خدمة أهداف لا علاقة لها بجوهر الدعوة ، وفي أحسن أحواله إعلام يصدر عن نوايا حسنة ولكنه بعيد عن كل تخطيط أو دراسة.

في هذه الأجواء ، ومن خلال هذه الظروف تصدر «البيان»:

١ - لتكون صوتاً من أصوات الحق في الأرض ، ولساناً معبراً عن الإسلام كرسالة خاتمة تخاطب الناس - كل الناس - في الأرض - كل الأرض.

٢ - ولتكون بياناً يتضمن توضيح الأهداف والغايات التي يتطلع إليها الدعوة والمخلصون ويساعد في البحث عن الوسائل الصحيحة التي غرق في دوامتها كثير من الكتابات الإسلامية في عصرنا هذا.

وهي إذ تعتمد هذا السبيل فإنها تسترشد بالبيان القرآني ، وأدب التعبير النبوي الذي وازن موازنة دقيقة بين دقة الخطاب وعمقه ووضوحيه وبين سمو تعبيره وأخذه بمجامع القلوب والعقول معاً.

٣ - ولتكون منبراً للمنهج الأصولي الذي مثله جيل السلف الأول ، الذي كان امتداداً لمنهج الأنبياء والمرسلين ، وسار عليه التابعون لهم بإحسان، وتمسكون به حين ذر قرن الفتنة ، ولم ينصرفوا عنه في ظلمة الفرقة ، ولم يتبعوا عنه في ظلام الفتن.

٤ - و«البيان» منبر من منابر أهل السنة والجماعة تعبر عن منهجهم ، وتدعو إلى أصولهم، وتذكر بطرقهم السليمة من الغلو والانحلال ، وهي - مع هذا - ليست منبراً لحزب ، ولا دعوة إلى طائفية ، ولا إلى إقليمية تخاطب قطبيعاً من الناس حدد له أعداء الإسلام حدود حظيرته وقضى عليه منهم أن لا يتجاوزها.

٥ - وهي مجلة كل مسلم ، مهما كان لونه أو جنسه ، وأياً كان موقعه ، وهي بهذا لا تدعى أنها صوت المسلمين الوحيد ، ولا تزدري الأصوات الأخرى التي تقف معها في ساحة العمل الإسلامي ، ولا تنظر بمنظار ذي جهتين ، يكبر لها نفسها ، ويصغر لها الآخرين ، كما أنها لا تدعى - ولن تدعى - الوصاية على الدعوة ، ولا تحتكر - ولن تحتكر - معرفة الحق ، بل تضم صوتها إلى جانب كل صوت يدافع عن القضايا الإسلامية بصدق وإخلاص ، وسوف تبتعد - بإذن الله - عن كل ما

يجعلها تورط في مشادات عقيمة ومهاترات رخيصة تلهيها عما نصبت صفحاتها من أجله.

وهي مجلة تعتقد أن ساحة العمل الإسلامي تتسع لكل الجهود ، وهي ساحة مشرعة لا يضيق صدرها بعمل صادق ، وجهد مشكور.

وسوف تتوسل المجلة - في سبيل أداء رسالتها - بقراء التاريخ قراءة متأنية هادفة والاستفادة من دروسه وعبره ، والاستفادة من رصيد التجارب التي مرت بها الدعوة الإسلامية عبر مسيرتها الطويلة ، والتعرف على سنن الله في الأنفس والمجتمعات والتعامل مع القواعد الشرعية المستخلصة من المنهج القرآني.

وإننا عبر هذه المجلة نرى أن الخطأ غير المقصود صفة ملزمة للإنسان ولا يتعارض ذلك مع التقوى التي هي الصفة الأساسية للمؤمنين ، ولا نقول بعصمة أحد ما خلا الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ولكن الذي يخل بالتقوى ويخلل الصفة والمسيرة هو الإصرار على الخطأ ، وعدم مراجعة النفس ، والاستكاف عن التوبة. وإن من أعظم القواعد الإسلامية التي تركنا العمل بها ، فوقعنا في براثن الاعتداد بالرأي والإعجاب بالنفس ، والاستبداد الذي يدمر عناصر الإبداع على كل صعيد بينما وجدت لها تطبيقاً عريضاً في المجتمعات الغربية فاتت أحسن النتائج والثمار القاعدة العmerica الإسلامية: «الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل».

لقد تركنا العمل بهذه القاعدة العظيمة - مع الأسف الشديد - ونحن أحق بها وأهلها، فتحكم بعضاً في بعض ، وأسلسنا قيادنا لمن لا يصلح لذلك ، ولم نستفد من التجارب على تكرارها وكثرتها.

وأخيراً فإن من أهم السمات التي نرجو أن تتسم بها هذه المجلة:

١ - البعد عن الغلو فهماً وتطبيقاً ، والالتزام بالوسطية ، وقوفاً عند قوله تعالى: ((وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أَمَّةً وَسَطًا لَتُكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...)) (البقرة ١٤٣).

٢ - الالتزام بالدليل الشرعي فيما نذهب إليه ، والبعد عن انتحال أهل الباطل وتأويلات الجهلة التي لا تستند إلى دليل صحيح. ((رَبَّنَا لَا تَرْزُغُ قُلُوبَنَا بَعْدًا إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَابُ)).
والحمد لله رب العالمين.

التجديد في الإسلام

- التحرير -

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمه ، ونستعينه ، ونستغفره ، وننحوه بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهدى الله فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

إن العالم الذي نعيش فيه تسيطر عليه العقائد والأفكار ، وتنتصاد المبادئ والأراء ، وقد اقتضت سنة الله في هذا الكون أن يكون الصراع بين الخير والشر صراعاً مستمراً ما استمرت الحياة ، وإن الإسلام الذي هو خير كله ، ولذلك اختاره الله ديناً للبشرية ، لن يترك من قبل قوى الشر ، ولا تزال شياطين الإنس والجن تواجهه بشتى الأسلحة منذ أن بعث محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم- إلى يوم الناس هذا .

وإن أخطر الأخطار التي تهدد هذا الدين ما كان داخلياً نابعاً من صفوف متبعيه ، فالذى يتبع حركة هذا الدين في التاريخ يجد مصداق ذلك ، فكل أنواع الإخفاق والانهزام التي مني بها أصحابه كانت أسبابها الرئيسية ترجع إلى تراخ في التمسك بهذه العقيدة ، أو عدم وضوح التصورات والأهداف يعتري الناس ، أو غفلة عن مبدئية هذا الدين في خضم تصارع القوى والأفكار حوله . وكل العلامات المضيئه في مسيرته التاريخية ترجع إلى انتباه المسلمين إلى ما يملكون من رصيد مادي ومعنوي حيث يعتزون بدينهم، ويشعرون بفداحة الأخطاء التي تهددهم من خلال استهداف الأعداء دينهم فيجتمعون على هدف موحد، ويسيرون إليه بخطاً واثقة يسهدون كتاب ربهم وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم-، ويستلهمون معاني القوى والاعتزاز وكراهية الظلم بشتى أشكاله من ذلك الرصيد العظيم وقد اقتضت حكمة الله أن يكون العلماء هم الرؤاد الذين يحملون النور في الظلمات الحالكة، وأن يكون علمهم هو الهدى لل المسلمين حين تطبق عليهم الخطوب وتفذهم المصائب ، فيبيثون بهذا العلم الثقة في النفوس المهزومة ويبعثون الأمل الضاحك في القلوب المقهورة ، ويشخصون الداء ويصفون الدواء بحكمة الطبيب النطاسي .

ومنذ أواسط القرن التاسع عشر المسيحي بدأ المسلمين بالتبه لواقعهم الذي آلوه إليهم: تراجع في القوى، وتشتت وتفرق، وملوك وولاة أنهكوا شعوبهم بظلمهم وعسفهم واستبدادهم، وأماتوا فيهم عوامل الوثوب والمقاومة، حتى غدوا جهلاء فقراء إلى جانب أمم الغرب التي استعدت عليهم، وبدأت تهددهم، وأخيراً قضت على آخر كيان سياسي كان يتكلم باسم هذا الدين وهو الدولة العثمانية ، وتمكنـت من أن تسيطر على بلدانهم وثرواتـهم ، وتجعلـهم بلدانـهم غذـاء لـمـصـانـعـها وبـطـونـها ، وـسـوقـاً لـمـنـتجـاتـها ، وـقـبـلـ كلـ ذـلـكـ وـضـعـتـ الخـطـطـ وـالـبـرـامـجـ منـ أـجـلـ تـغـيـيرـ عـقـائـدـ هـذـهـ الشـعـوبـ ، وـقـطـعـ صـلـاتـهاـ بـتـشـرـيـعـهاـ وـقـيـمـهاـ وـأـخـلـاقـهاـ ، وـإـحـلـ عـقـائـدـ وـمـنـاهـجـ الغـربـ الـكـافـرـ مـحـلـهاـ ، فـتـقـرـبـ العـقـولـ مـنـ الـعـقـولـ ، وـتـرـدـ الـهـوـةـ السـحـيـقـةـ الـتـيـ تـقـصـلـ بـيـنـ قـيـمـ وـقـيـمـ ، وـعـادـاتـ وـعـادـاتـ ، فـيـسـلـسـ لـهـاـ قـيـادـ هـذـهـ الشـعـوبـ ، وـيـسـهـلـ

لها تحقيق مطامعها في بسط الهيمنة ورفع الحضارة الغربية المسيحية الوثنية ، وتدمير المعاني الإسلامية الربانية.

ومنذ ذلك الحين إلى الآن قامت دعوات ونهض أفراد ، يرفعون رأيات الإصلاح ويبينون مكامن الأخطاء كل حسب رأيه وقدراته ومنازعه الثقافية.

وكان دعاء الإصلاح - وما زالوا - كل له رأيه في الإسلام ، فكان أن جعله طائفة أساساً لعملها ، وطائفة تجاهله ، وطائفة اختارت منه أشياء ورفضت واستبعدت أشياء يدفعها إلى ذلك التحكم المفضي تارة ، أو الانهزام أمام الأفكار الوافدة تارة أخرى ، أو الغرور مرات كثيرة.

على أن الأمر الذي آثار - ويثير - البلبلة في الأفكار ، وخاصة أفكار الشباب هو أن أغلب رواد الإصلاح كانوا يرفعون راية الدين ، ويدعون أنهم على الجادة التي ترك محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم - أصحابه عليها ، مع أن أغلب أولئك الرواة قد شابت مسالكهم الشوائب ، وخلطت منهاجهم أمور غريبة كانت نتيجة تصور غير صافٍ للمنهج الإسلامي الأصيل.

وهذه الدراسة التي نقدم لها تتناول هذه القضية الخطيرة ، قضية التجديد والإصلاح ، وتصب في صميم تحديد المنهج الذي يجب أن ينتهجه المسلمون ، حتى يخرجوا مما هم فيه من الضعف العقائدي ، ويرتفعوا عن وهذه الذلة والهوان التي صاروا إليها.

وقد طرح هذا الموضوع الحساس على بساط البحث قديماً وحديثاً ، وتناولته طائفتان من الكتاب:

١ - طائفة يمكن أن نطلق عليها اسم (هواة الكتابة) ، حيث وجدوا هذا الموضوع مستطراً ، فتناوله إشباعاً لهواية الكتابة عندهم لا انطلاقاً من شعور مُلحٍ ، وإحساس تفاعلي بينهم وبين الواقع.

٢ - طائفة من العلماء الأعلام تعرضت له تعرضاً خفيفاً حسب ما يقتضيه ما هم بصدده من بيان المراد بالجملة لا بالتفصيل ، وشرح لمضمون حديث (المجدد) حينما يعرض في دواوين السنة.

وهذه أول دراسة علمية - فيما نعلم - لموضوع التجديد والمجددين ، مستوى عَلَى له ، مقصورة عليه ، دفع إليها الإحساس بالحاجة إليه في هذا الوقت الذي توالت فيه المحن والشدائد على حَمَلَة هذا الدين ، وقلَّ العلم وكثُرت الدعوة ، وتعددت اللاقات المرفوعة.

وسيجد القارئ أسباب اعتبارنا هذه الدراسة واعتدادنا بها موثقة في ثانياً البحث الذي ستنشره على حلقات في هذه المجلة - إن شاء الله - ، ومن أبرز هذه الأسباب: الحرص على الأدلة الشرعية من كتاب الله وسنة رسوله ، مع بيان مبلغ حديث من الصحة عند الاستشهاد ونقل أقوال العلماء المحققين ، وتقديم دراسة تاريخية لأبرز المجددين ، مع ربط هذه الأمور بواقع عصرنا.

وسيكون من خطة المجلة أن تتبني كتاباً أو أبحاثاً مسلسلة ثم يصار إلى طبعها في كتاب يكون موازياً للمجلة.

التجديد في الإسلام

تمهيد:

الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ونستغفره ، وننوب إليه ، وننعواز بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهدى الله فلا مضلّ له ، ومن يضلّ فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك ، وأشهد أن محمد عبده ورسوله.

أما بعد:

فقد أوجد الله تبارك وتعالى الخلق على ظهر هذه البسيطة - بحكمته البالغة - ليبلوهم أيهم أحسن عملاً؟ واقتضت حكمته سبحانه أن يجعل فطرتهم الاستقامة والصلاوة والميل عن الشرك إلى التوحيد.

فأوجد البشر - أول ما أوجدهم على الحنيفة ، قال تعالى: ((كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً)) (١).

وقال: ((وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا)) (٢).

وقال صلى الله عليه وسلم- فيما يرويه عن ربه عز وجل:

«كل مال نحلته (٣) عبداً حلال وإنني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين ، فاجتالتهم (٤) عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل سلطاناً...» (٥) الحديث.

وجعلهم - سبحانه - يولدون حين يولدون على فطرة الإسلام السليمة المستقيمة ، كما قال صلى الله عليه وسلم- فيما رواه أبو هريرة - رضي الله عنه -:

«ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، كما تتنج البهيمة بهيمة جماعه هل تحسون فيها من جدعاء؟» ، ثم يقول أبو هريرة: واقرءوا إن شئتم: ((فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيْمُ)) (٦).

قال الإمام البخاري - رحمه الله -: (الفطرة: الإسلام) (٧).

ويشهد لذلك أن في بعض ألفاظ الحديث: «ما من مولود إلا على هذه الملة ، حتى يبين عنه لسانه» (٨).

ولأن الله تعالى أراد ابتلاء البشر وامتحانهم ليتحقق في واقع الحياة ما علمه عنهم بسابق علمه سبحانه ؛ فقد جعلهم قابلين لسلوك كلا الطريقين: الخير أو الشر ، ففي مقدورهم الاستمرار على الفطرة الأولى ، وفي مقدورهم الانحراف عنها والميل إلى طريق الضلال.

وزودهم بالوسائل والمدارج التي يتمكنون باستعمالها من معرفة الحق وإدراكه - في الجملة - ويسّر لهم من الدلائل والبيانات في الآفاق وفي أنفسهم ما يقوّي عنصر الخير ويعكّنه.

وبعث لهم الأنبياء والرسول - عليهم صلوات الله وسلامه - مبشرين ومنذرين ، بحيث لم يعد الناس على الله تعالى حجة . كما ابتلاهم - سبحانه بحكمته - بالشهوات والشبهات لتكون محاكاً حقيقياً يكشف عن توجه الإنسان ومقصده ، والشياطين تزكي هذه وتلوك وتؤز الإنسان للشر والمنكر أزاً .

وهكذا يبدأ الصراع بين الحق والباطل:

- داخل النفس البشرية بين قوة الخير ، تؤيدها الرسالات السماوية وتشهد لها الأدلة الكونية والعقلية ، وقوة الشر ، تؤججها الشياطين المسلطة على ابن آدم .
- ثم في مجال الحياة البشرية - بشكل أوسع - حيث يتميز المؤمنون أتباع الرسل ، عن المجرمين أتباع الشياطين .. ثم تتصارع هاتان الفتتان للسيطرة على الحياة البشرية وتوجيهها وقيادتها .

ولقد تعاهد الله تعالى البشرية بالمرسلين - عليهم الصلاة والسلام - ، الذين كانوا يقودون خطاهم إلى السعادة في الدنيا والآخرة ، فكان منهم من يأتي بشرعية إلهية جديدة ، ومنهم من يأتي لتجديد ما اندرس من شريعة نبي قبله ، حتى ختم الله الرسالات برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وانقطع بموته - عليه الصلاة والسلام - الوحي الذي كان يتنزل من قبل على الأنبياء والمرسلين .

وإن من طبيعة الحياة الإنسانية أن ترتد وتأسن ، ويطرأ عليها بمرور الزمن ما يكرر صفائها ، فلا يكاد الناس يستقيمون على الإيمان والتوحيد حتى تبدأ عوامل الانحراف تتسلب إليهم شيئاً فشيئاً تسرّب الماء الأسن إلى المشرع الروي الزلال .. ولا يلبث نقاء العقيدة أن يشوبه شيء من ذرائع الشرك ووسائله وأسبابه ثم تظهر بعد حين النتائج المخوفة من وراء تلك الذرائع والوسائل والأسباب .

ولقد كان ناس من الناس ينحرفون في أعظم الأمور وأخطرها - في قضايا الاعتقاد - حتى في حياة رسلهم - عليهم الصلاة والسلام - ، فكيف وقد ختمت الرسالات ، وأغلقت أبواب الوحي فلا يتنزل بعد؟؟ وكيف بما دون تلك القضايا من أمور التشريع؟ .

وإذا كان المنافقون والضاللون يجدون من يستمع إليهم ويصغي إلى وسواسهم رغم وجود الرسول صلى الله عليه وسلم - الذي يمثل القيادة السليمة والقدوة الصالحة ، ويكشف عن مُحيَا الحق حُجب الباطل فيسفر كالشمس ليس دونها سحاب ، فكيف يكون الأمر إذا ضاعت السبيل ، وتفرقـت الأهواء وكثـرت الأصوات المضـاللة ، وخفـت صـوتـ الحق ، وـالتـبـسـتـ معـالـمـهـ فـلـمـ يـعـدـ النـاسـ يـمـيـزـونـ بـيـنـ الـأـصـوـاتـ ، وـلـاـ بـيـنـ الـأـلـوـانـ؟؟

إن الحاجة في مثل تلك الحال تتطلب بروز قيادة إسلامية متميزة تجدد للأمة أمر دينها ، وتجلي الحقائق الملتبسة ، وتحيي الفرائض المعطلة ، وتزيل ما علق بهذا الدين من الآراء الضالة والمفهومات المنحرفة .

ويمثل هذه القيادة التي تضطلع بمهمة الخلافة عن التبين في تجديد الدين وإحيائه بشرّ الحديث النبوى الشريف.

حديث المجدّد:

قال الإمام أبو داود - رحمه الله تعالى - (في سننه): حدثنا سليمان بن داود المهرى ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنا سعد بن أبي أىوب ، عن شراحيل بن يزيد المعافري ، عن أبي علقة ، عن أبي هريرة ، فيما أعلم: عن رسول الله صلى الله عليه وسلم- قال:

«إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها».

قال أبو داود: (رواه عبد الرحمن بن شريح الإسكندراني ، لم يجز به شراحيل)(٩). وهذا الحديث أخرجه أيضاً الحاكم في مستدركه عن طريق الربيع بن سليمان بن كامل المرادي ، عن ابن وهب به (١٠).

ورواه الخطيب البغدادي في (تاریخ بغداد) عن طريق عثمان بن صالح ، عن ابن وهب (١١).

ورواه ابن عدي في (الكامل) من رواية عمرو بن سواد ، وحرملة بن يحيى ، وأحمد بن عبد الرحمن بن وهب ، ثلاثتهم عن عبد الرحمن بن وهب (١٢).

ومن طريقه - طريق ابن عدي - أخرجه البيهقي في (معرفة السنن والآثار) (١٣). وأخرجه الحسن بن سفيان في مسنده عن حرملة بن يحيى وعمرو بن سواد (١٤). ومن طريقه أخرجه البيهقي في (مناقب الشافعى) (١٥).

وعزاه السيوطي والساخاوي باللفظ السابق إلى الطبراني في (معجمه الأوسط) (١٦). كما عزاه السيوطي إلى أبي نعيم ، والبزار ، ولعله لا يقصد الحديث بلفظه السابق ، بل يقصد اللفظ الآخر الآتي قريراً إن شاء الله.

كما عزاه الألبانى لعمرو الدانى في (الفتن) ١/٤٥ ، والهروي في ذم الكلام (ق / ٢/١١) وانظر اللفظ الآتي بعد قليل (١٧).

ورواه ابن عساكر في (تبين كذب المفترى) من طريق أبي داود ثم من طريق ابن عدي (١٨).

وقول الراوى: (فيما أعلم) ليس شكاً في رفع الحديث ، وإنما هو من قبيل التحرز في الرواية ، والتشدد في الأداء ، المعروف عند السلف.

وعلى فرض وقف الحديث فهو في حكم المرفوع ؛ لأنه مما لا يقال بالرأي المجرد ؛ بل بالتوقف إذ هو إظهار عن أمر مستقبل لا يعلمه إلا الله تعالى.

وقال أبي داود: (رواه عبد الرحمن بن شريح لم يجز به شراحيل) ، فهو يعني أن عبد الرحمن قد أعمل الحديث فأسقط من إسناده أبو علقة وأبا هريرة.

وطريق سعيد بن أبي أىوب المتصلة هي الراجحة وإن كان كلاهما ثقتين لأنها من باب زيادة الثقة ، وزيادة الثقة مقبولة إذا لم يعارضها ما هو ثابت منها ، وهذا الحال هنا ، فيتعين قبولها ، والمصير إليها.

وقد صح الأئمة هذا الحديث حتى نقل بعضهم الإجماع على تصحيحه.

- ١- وسكت عنه الحاكم ثم الذهبي كما في مطبوعه (المستدرك) ونقل غير واحد تصحيح الحاكم له منهم: السيوطي (١٩) ثم المناوي (٢٠).
 - ٢- وقال ابن حجر - بعد سياق أقوال الأئمة في المجدد - (و هذا يشعر بأن الحديث كان مشهوراً في ذلك العصر ، فيه تقوية للسند المذكور ، مع أنه قوي لثقة رجاله) (٢١).
 - ٣- وقال السيوطي: (اتفق الحفاظ على أنه حديث صحيح.. «ثم قال»: وأما المتقدمون فكلهم لهجوا بذكر هذا الحديث) (٢٢).
 - ٤- ورمز لصحته في (الجامع الصغير) (٢٣).
 - ٥- وقال الزين العراقي: سنه صحيح (٢٤).
 - ٦- وقال السخاوي: سنه صحيح ، ورجاله كلهم ثقات (٢٥).
 - ٧- وقال الألباني: والسند صحيح ، ورجاله ثقات ، رجال مسلم (٢٧).
- وبالجملة فقد اعتمد العلامة الزهرى، وسفيان بن عيينة، وأحمد، والحاكم، والبيهقي، وابن عساكر، والنوى، وابن السبكى، وابن حجر العسقلانى، والحافظ الذهبي، والحافظ زين الدين العراقي، والحافظ ولی الدين العراقي، وابن الجزري، وابن كثير، وابن الأثير، والسيوطى، والسخاوي، والمناوي، ومئات غير هؤلاء، كلهم اعتمدوا الحديث، واشتغلوا في تجديد من ينطبق عليهم الحديث.
- ولم نعثر خلال البحث عن ضعف الحديث أو تكلم فيه ، فالحمد لله رب العالمين.

الफاظ اخري للحديث:

ورد الحديث بألفاظ أخرى مختلفة قليلاً أو كثيراً عن اللفظ المسوق من قبل. فرواه النحاس عن سفيان بن عيينة قال: (بلغني أنه يخرج في كل مائة سنة بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم- رجل يقوى الله به الدين ، وإن يحيى بن آدم عندي منهم) (٢٨).

وبنحوه أجره البزار (٢٩).

وروى عنه بلفظ: «إن الله يمُّ على أهل دينه في رأس كل مائة سنة برجل من أهل بيتي، يبين لهم أمر دينهم» (٣٠).

وألفاظ آخر غير هذه كثيرة تلتقي كلها عند الإمام أحمد ، وهي روایات معلقة لم توجد موصولة في موضع آخر ولم يوقف على إسناده في شيء من الكتب ولا الأجزاء الحديثية - كما قال السيوطي (٣١) - ولذا لا يعول على المعانى التي انفردت بها هذه الروایات مثل: كون المجدد فرضاً ، وكونه من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، وكونه على رأس المائة بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم- كما هو ظاهر لفظ ابن عيينة - رحمة الله -.

٣- بعض المعانى المستخرجة من الحديث:

إن هذا الحديث العظيم إحدى البشائر التي وعد الرسول -صلى الله عليه وسلم- فيها أمنته ، وإنه ليمنح المسلم المصدق بما جاء به الرسول - عليه الصلاة والسلام - طاقة من الأمل الأكيد بنصر الله لعباده المؤمنين ، ويمنحه - فوق هذا - دفعة قوية للعمل والبذل والتضحية رجاء أن يكتب الله له حظاً من أجر المجددين .
وسنقف في هذه الفترة مع بعض المعاني التي نستلهمها من الحديث .

١- فأول ما يستوقف المتأمل قول الرسول -صلى الله عليه وسلم- : «يبعث لهذه الأمة» إن هذا المبعث لم يعد همه نفسه فحسب ، بل تجاوز ذلك ليعيش «لهذه الأمة» وسواء كان المقصود أمة الدعوة - على ما رأه قوم - أو أمة الإجابة - على ما رأه آخرون - ؛ فإن هذا المجدد تعدى نطاقه المحدد إلى الأفق الأوسع ليؤثر في مجريات الأمور والأحداث من حوله وليقود خطوات الأمة المسلمة في معركة الحياة ، ومن ثم يحدث التوازن في مسيرة الحياة البشرية كلها ، ويأخذ الإسلام دوره في الوجود .

وهو بهذا مجذد للأمة الإسلامية بإيقاظها ، وإعادة ثقتها بدينها ، وردها إلى المنهج الصحيح .

وهو مجرد للبشرية كلها ، البشرية المتلهفة إلى العدالة والإيمان . المحتاجة إلى العقيدة أكثر من حاجتها إلى الطعام والشراب والهواء .

إن هذا المجدد ليس ممن يقنعون باليسير ، ويرضون بالدون ، فيكتفي أحدهم بحفظ نفسه ومن تحت يده - إن استطاع - ثم يترك أمر الناس للناس ! .

بل قد تعظمت همته واشتدت عزيمته فصار لا يطيق صبراً على الفساد والانحراف ، وأفق قلبه سلط الظالمين والمفسدين وتوجيههم للحياة وفق ما يريدون ، فلآلئ على نفسه أن يزاحمهم ما استطاع ، ويشق الطريق للأخيار حتى يأخذوا دورهم في الحياة من جديد .

إن الذين تتحرك في نفوسهم الأمل والتطلعات كثيرون ، ولكنهم يتناقدون ويتساقطون واحداً بعد الآخر كما تقدمت بهم الطريق وازدادت التحديات وكثرت المتابع .

ومن أجل ذلك تميز فرد أو أفراد بأنهم المجددون ؛ لأنهم صابروا العقبات وغالبواها حتى غلبوها ؛ لأن همهم كانت أعظم من تلك العقبات: كانت تجديد الدين لهذه الأمة ، وإعطاء المسلمين دورهم القيادي بين الأمم ، مع تحقيق معنى انتمائهم للإسلام .

لذلك فهم يمارسون دورهم العالمي من خلال دورهم الإسلامي ، ويمارسون دورهم الإسلامي من خلال فنونهم الخاصة التي هي النواة الأولى للإصلاح المرتقب .

٢- أما «البعث» المذكور أنه يكون على رأس المائة ، فإن البعث هو الإثارة والإرصال ، فيكون المعنى: (إن الله يقيض لهذه الأمة على رأس المائة مجدداً ، أي: أن هذا المجدد يتصدى في رأس المائة لنفع الأنام ، وينتصب لنشر الأحكام) (٣٢) .

فليست ولادته ولا وفاته على رأس المائة ، بل تجديده . ولذلك استغرب الإمام المناوي فهم بعض العلماء أن المعموت يكون موتة على رأس القرن وقال: (وموته على رأس القرن أخذ لا بعث) (٣٣).

قال ابن الأثير: (وإنما المراد بالذكر من: انقضت المائة وهو حي ، عالم مشهور مشار إليه) (٣٤).

وقال الكرماني والطبيبي مثل ذلك (٣٥).

وقال السيوطي في منظومته التي سماها: (تحفة المحدثين بأخبار المجددين) (٣٦): والشرط في ذلك أن تمضي المائة وهو على حياته بين الفئة يشار بالعلم إلى مقامه وينصر السنة في كلامه (٣٧).

وكذلك لا نعلم دليلاً في اشتراط كون وفاة المجدد في بداية القرن التالي أو بعده بقليل ، كما يلحظ في منهج كثير من تصدوا لتعيين المجددين ؛ حيث يستبعدون بعض الأنماة متحججين بأن وفاته تأخرت إلى العشرين مثلاً أو الثلاثين بعد المائة مثلاً (٣٨).

وسواء كان بعث المجدد في نهاية القرن السابق ، أو في بداية القرن اللاحق فليس ثمة ما يدل على ضرورة اشتراط وفاته في تلك الفترة.

وهذا كله على اعتبار أن المجدد فرد واحد ، وسيأتي الحديث عن هذه المسألة مفصلاً بعد قليل - بإذن الله - .

٣- أما المقصود بـ (الرأس) في قوله - صلى الله عليه وسلم - : «على رأس كل مائة سنة» ، قد قال بعضهم: يعني في أولها ، وقال آخرون: بل في آخرها (٣٩).

وأصل مادة «رأس» في اللغة تدل على التجمع والارتفاع (٤٠).

وستعمل هذه المادة في الوجهين في أول الشيء وفي آخره ؛ فنقول: أعد على كلامك من رأس ، وأنت على رئيس أمرك ، بمعنى: أوله (٤١).

ومثله: رأس المال ، أي: أصله وأوله (٤٢).

وتقول: القافية رأس البيت ، بمعنى: آخره (٤٣).

وجاء في الشرع الوجهان: فمن الأول: رأس الأمر الإسلام (٤٤) ، بمعنى: أوله ورأسه.

ومن الثاني: قد كانت إحداكن ترمي الكرة عند رأس الحول (٤٥) ، يعني: في آخره. ومثله قوله - صلى الله عليه وسلم - : «أرأيتم لياتكم هذه؟ على رأس مائة سنة منها لا يبقى من هو على ظهر الأرض أحد» (٤٦).

وحيث نعود إلى تحديد الأنماة للمجددين نجده محتملاً للوجهين ، فهذا عمر بن عبد العزيز الذي أطبقت عليه الأنماة تولى سنة ٩٩ هـ ، وتوفي - رحمه الله - سنة ١٠١ هـ.

ثم من بعده الشافعي، توفي - رحمه الله - سنة ٢٠٤ هـ ، ولعل القضية تقريبية لا تحتمل الحسم القاطع بحيث لو وجد من تنطبق عليه صفات المجدد ثم مات قبل تمام المائة بخمسة أيام يكون مجدداً!..

ولعل ما يلتحق بهذا معرفة مبدأ المائة: من أين يكون؟ أمن مولده - صلى الله عليه وسلم - ؟ أم من بعثته؟ أم من هجرته؟ أم من وقت نطقه بذلك الحديث؟ أم من وفاته؟.

ولا نحب أن ندخل في جدل حول هذه الأمور - وإن كان الترجيح بينها ممكناً - ولكننا نقول:

إن بداية أي قرن تتصل بنهاية القرن الذي قبله ، ومما لا يتلاءم مع طريقة الشرع اعتبار الفصل بينهما بصورة قاطعة ؛ ذلك أن الشرع حتى في الأمور العبادية كالصلوة والصيام والحج وغيرها علق ذلك على أمور ظاهرة مدركة لجمهور الناس.. فكيف بما ليس كذلك ولا يدخل فيه تعبد؟.

الظاهر - والله أعلم - أن عدم تحديد المقصود بالرأس ، وعدم تحديد المبتدأ.. كل ذلك أمرٌ مقصود فيه أن المجدد يظهر كلما دعت الحاجة إليه لبعد الناس عن عهد النبوة ، أو لبعدهم عن عصر المجدد السابق.

وهذا ينسجم مع الأحداث التاريخية كلها ؛ فإنها تسير بقدر الله تعالى على دفع ما تقتضيه الأسباب - غالباً - غير مقيدة أو محددة بفترات معينة.

ومما يبين ذلك ويجليه أن الأحداث والمصائب النازلة بال المسلمين في دينهم ودنياهم ، والتي يفتقر المسلمين خلالها إلى ذلك المجدد هي غير مسلسلة ولا موقوفة بأزمنة خاصة.

وفي تلك النكبات تجلى رحمة الله بأمة محمد - عليه الصلاة والسلام - حيث ينقذها بفضله من الهلاكة بمن يبعثه يحمل النور في ظلمة الديجور.

كما أن هذا المجدد ينبغي أن يتصور أن له من التأثير الممتد زمناً ومكاناً ما يجعله حياً في الأجيال التالية بعلمه وعمله ، وإن كانت حياته الدنيوية المحدودة قد انتهت. وإن من شأن هذا التصور الذي عرضناه ، وهذا الرأي الذي اخترناه أن ترد الأمور إلى نصابها فبحسب من أحيا للأمة ما اندرس من أمر دينها إحياءً ظاهراً ملماساً للعيان من المجددين دون أن يعكر على ذلك كون وفاته تقدمت أو تأخرت عن رأس القرن.

٤- أما قوله - صلى الله عليه وسلم - : «من يجدد لها دينها». فيثور حوله سؤال ذو أهمية كبيرة:

هل المقصود بذلك فرد أو رجل كما صرحت به الروايات التي رويت عن الإمام أحمد وسفيان؟ أم إن المقصود ما هو أوسع من ذلك؟.

فأما لفظ «من» فمما لا يخفى أنه يطلق على المفرد وعلى الجماعة - من حيث اللفظ - ، ومن حيث المراد بها في الحديث قال بعضهم: المقصود بها فرد ، وحملوا «من» في هذه الرواية على لفظ (رجل) ، أو (عالم) في الروايات الأخرى التي سلف لك بيان شأنها (٤٧).

واختار هذا الرأي عدد من العلماء ، ونسبة السيوطي إلى الجمهور فقال: وكونه فرداً هو المشهور قد نطق الحديث ، والجمهور (٤٨)

ونسبة غيره إلى (العلماء) (٤٩). واختار آخرون العموم، منهم: الحافظ ابن حجر، وابن الأثير، والذهبى، والمناوي، والعظيم أبادى ، وغيرهم ، وسيأتي بسط كلامهم.

و قبل الدخول في محاولة الترجيح نرى التقديم بحديثين فيهما بشرى أن آخريان لهذه الأمة:

أولهما: قوله - صلى الله عليه وسلم -: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله» (٥٠).

وهذا الحديث عظيم مشهور، بل يصلح أن يدعى فيه التواتر، فقد ورد من طرق كثيرة جداً عن عدد من الصحابة منهم:

عمران بن حصين، وثوبان، وقرة بن إياس، والمغيرة بن شعبة، وجابر بن سمرة، وجابر بن عبد الله، ومعاوية بن أبي سفيان، وعقبة بن عامر، وسعد بن أبي وقاص، وأبو هريرة، وأبو عتبة الخولاني، وعمر بن الخطاب، وأبو أمامة الباهلى، وزيد بن أرقم، ومرة البهذى ، وسلمة بن نفيل (*) السكونى ، وشرحبيل بن السُّمطى الكندي (*).

قال الترمذى: (وفي الباب عن عبد الله حواله ، وابن عمر ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن عمرو) (٥١).

فهؤلاء إحدى وعشرون نفساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رواه عنهم عدد لا يحصون كثرة من التابعين ، مع أننا لم نسلك مسلك الاستقصاء.

وفي إشارة إلى ما يصيب الأمة من الانحراف والضعف والوهن والاختلاف حتى لا يبقى إلا هذه الطائفة القائمة بالحق المقاتلة دونه ، القاهرة لعدوها ، الصابرة ، فلا يضرّها من خذلها ، ولا من ناوأها ، إلا ما يصيبها من الألواء حتى يكون آخرهم مع عيسى ابن مريم يقاتلون الدجال.

وقد قال الإمام البخارى في ترجمته على الحديث: (باب قول النبي - صلى الله عليه وسلم -: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، وهم أهل العلم) (٥٢).

الهوامش:

١- البقرة آية ٢١٣،

٢- يونس آية ١٩،

٣- نحلته: أعطيته.

٤- اجتالتهم: صرفتهم عن هداهم إلى ضلالتها وأخذتهم بأن يجعلوا معها واختارتهم لأنفسها (أساس البلاغة).

٥- رواه مسلم في: ٥١ - كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها. ١٦ - باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ، حديث رقم ٦٣ ، الرقم العام ٢٨٦٥ ، ج ٤ ص ٢١٩٧ ، ط: عبد الباقي ، رواه أحمد في (المسند) ج ٤ ، ص ١٦٢ ضمن حديث عياض بن حمار المجاشعي - رضي الله عنه -.

٦- الآية من سورة الروم ، رقم الآية ٣٠ ، والحديث رواه البخاري في: ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٩٢ - باب ما قيل في أولاد المشركين. حديث ١٣٨٥ ، الفتح ٢٤٥ / ٣ - ٢٤٦ .

ورواه أيضاً في: ٦٥ - كتاب التفسير ، باب لا تبديل لخلق الله ، رقم: ٤٧٧٥ ، ج ٨ ، ص ١٢ ، ورواه أيضاً في ٨٢ - كتاب القدر ، ٣ - باب: الله أعلم بما كانوا عاملين ، رقم ٦٥٩٩ ، ج ١١ ، ص ٩٣ . ورواه مسلم في: ٤٦ - كتاب القدر. ٦ - باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة ، رقم ٢٦٥٨ ، ج ٤ ، ص ٤٧ ، ورواه أحمد في موضع: ٣١٥ / ٢ - ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٢٧٥ ،

٧- في الموضع السابق من كتاب التفسير ٥١٢،/٨

٨- هذا أحد ألفاظ مسلم.

٩- أبو داود: ٣١ - كتاب الملاحم ، ١ - باب ما يذكر في قرن المائة ، حديث ٢٩١ ، ج ٤ ، ص ٤٨٠ ، ط ٣.

١٠- المستدرك: كتاب الفقه والملاحم ج ٤ ، ص ٥٢٢ ، دار الفكر.

١١- تاريخ بغداد ج ٢ ، ص ٦١ ، نشر دار الكتاب العربي.

١٢- المقدمة ص ١٨١ - ١٨٣ ، تحقيق: السامراني ، ط: الأعظمي ببغداد ، وج ١ ، ص ١٢٣ ، ط: دار الفكر.

١٣- ج ١ ، ص ١٣٧ ، تحقيق: سيد أحمد صقر ، ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة.

١٤- ذكر ذلك الحافظ ابن حجر في كتابه (توالي التأسيس بمعالي ابن إدريس) ص ٢٤ من المخطوط في مكتبة الحرم المكي برقم ١٠٦ مجاميع. وتابعه على ذلك المصنفون من بعده كالسيوطى ، والعظيم أبيادي صاحب (عون المعبد).

١٥- ج ١ ، ص ٥٣ ، تحقيق: أحمد صقر ، ط: دار التراث.

١٦- السيوطى في رسالته المخطوطة: (التنبئة فيمن يبعث الله على رأس كل مائة) ص ١٢. والساخوى في (المقاديد الحسنة» ص ١٢٢ ، حديث ٢٣٨ ، ط: دار الكتب العلمية.

١٧- سلسلة الأحاديث الصحيحة ج ٢ ، ص ١٥٠ ، رقم ٥٩٩ ، المكتب الإسلامي.

١٨- ص ٥١ ، ٥٢ ، ط: القدسي ، عام ١٣٩٩ هـ.

١٩- السيوطى في (التنبئة) ص ١٢١ ، وفي شرحه (مرفأة الصعود على سنن أبي داود) ص ١٨٩ ب (مخطوطتان).

٢٠- فيض القدير ج ٢ ، ص ٢٨٢ ،

٢١- توالى التأسيس بمعالي ابن إدريس (المخطوطة) ص ٢٤ ب.

٢٢- التنبئة ، ص ١٢ ، ونحوه في مرفأة الصعود ، ص ١٨٩ ب.

٢٣- الجامع الصغير ، ج ١ ، ص ٧٤ .

- ٤- ذكره السيوطي في مرقة الصعود ، ص ١٨٩ ب ، وفي التنبئة: ١٢ ، والمناوي في فيض القدير ج ٢ ، ص ٢٨٢ ، وصاحب عون المعبود ج ٤ ، ص ١٨٣ ، ط. هندية.. وغيرهم.
- ٥- المقاصد الحسنة ، ص ١٢١ ، ثم قال: (وقد اعتمد الأئمة هذا الحديث) .
- ٦- فيض القدير ج ٢ ص ٢٨٢.
- ٧- سلسلة الأحاديث الصحيحة ج ٢ ، ص ١٥٠ ، رقم ٥٩٩ .
- وقال في صحيح الجامع: حديث صحيح ، ج ٢ ، ص ١٤٣ ، رقم ١٨٧٠ ، ط: المكتب الإسلامي.
- أما قوله: (رجال مسلم) فنعم ، وانظر في ذلك: تهذيب التهذيب ج ٦ ، ص ٧١ ، ج ٤ ، ص ٧ ، ج ٤ ، ص ٣٢٠ ، ٣٢٣ ، ٣٢٦ ، ج ١٢ ، ص ١٧٣.
- ٨- الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس ، مخطوط ورق ٨٥/ب ، ٨٦/أ.
- ٩- عن توالي التأسيس لابن حجر ، مخطوطة ، ورقة ٢٤ / أ ، والتنبئة ، ورقة ٢ - ب.
- ١٠- أبو نعيم في الحلية ٩٧٩ ، وأبو إسماعيل الهروي بواسطة التنبئة ورقة ٢/ب ، ولعله هو اللفظ الذي عنده الشيخ الألباني في إحالته السابقة إلى الهروي في ذم الكلام.
- ١١- التنبئة ورقة ٥/ب.
- ١٢- مقدمة فيض القدير للمناوي ، ج ١ ، ص ١٠.
- ١٣- أيضاً ١٢،/١
- ١٤- جامع الأصول ج ١١ ، ص ٣٢٤ ، تحقيق: الأرنؤوط ، ط: الملاح.
- ١٥- فيض القدير ١٢/١ ، وانظر: عون المعبود ١٧٨/٤ ، ١٨٠ ،
- ١٦- موجودة بكاملها في آخر رسالته (التنبئة) ، موجودة في فيض القدير ج ٢ ، ص ٢٨٢ ، وعون المعبود ٤/٤ ، ٨١،
- ١٧- التنبئة ص ١٨/ب.
- ١٨- ومن هؤلاء: ابن السبكي في: طبقات الشافعية ، ج ١ ، ص ٢٠٢ ، حيث يرجح بعضهم لقرب وفاته من رأس المائة. ويدر الدين الأهدل في رسالته: (الرسالة المرضية في نصر مذهب الأشعرية) على ما نقله السيوطي في التنبئة ، ص ١٣/ب ، وانظر مستدرك الحاكم ج ٤ ، ص ٥٢٢ ، ٥٢٣ ،
- ١٩- انظر: عون المعبود ج ٤ ، ص ١٧٨ - ١٧٩ ، ط: الهندية.
- ٢٠- معجم مقاييس اللغة لابن فارس ج ٢ ، ص ٤٧١ ، دار الكتب العلمية - إيران - قم.
- ٢١- الصحاح للجوهري ج ٣ ص ٩٣٣ ، دار العلم للملايين ، ومعجم مقاييس اللغة.
- ٢٢- القاموس المحيط ج ٢ ، ص ٢٢٦ ، ط ٢ الحلبية.
- ٢٣- لسان العرب ج ٦ ، ص ٩١ ، ط: دار صادر.
- ٢٤- حديث مرفوع رواه الترمذى في: ٤١ - كتاب الإيمان ، ٨ - باب ما جاء في حرم الصلاة ، حديث رقم ٢٦١٦ ج ٥ ص ١٢ ، وقال الترمذى: حسن صحيح.

- ٤٥- حديث مرفوع رواه مسلم في: ١٨ - كتاب الطلاق ، ٩- باب وجوب الإحداد ، رقم ٦١ ج ٢ ص ١٢٦ ، وأبو داود في: ٧ - الطلاق ، ٤٣ - باب إحداد المتوفى عنها زوجها، رقم ٢٢٩٩ ، ج ٢ ص ٧٢٢ ، والترمذى في: ١١ - كتاب الطلاق ، ١٨ - باب ما جاء في عدة المتوفى عنها زوجها ، رقم ١١٩٧ ، ج ٣ ص ٤٩٢ ، والنسائى في الطلاق ، باب عدة المتوفى عنها زوجها ١٨٨/٦ ، وليس فيه لفظ (رأس الحول) .
- ٦- حديث: أرأيتمكم لياتكم.. رواه البخاري في صحيحه في:
أ - ٣- كتاب العلم ، ٤١ - باب السمر في العلم ، حديث رقم ١١٦ ، ج ١ ، ص ٢١١ (مع الفتح) .
- ب - ٩ - مواقف الصلاة ، ٢٠ - باب ذكر العشاء والعتمة ، حديث ٥٦٤ ، ج ٢ ، ص ٤٥ .
- ج - ٩ - مواقف الصلاة أيضاً ، ٤٠ - باب السمر في الفقه والخير بعد العشاء ، حديث ٦٠١ ، ج ٢ ، ص ٧٣ .
- ورواه الإمام أحمد في (مسنده) ج ٢ ، ص ٨٨ ، ص ١٢١ ، ص ١٣١ .
- ٤٧ - انظر: توالي التأسيس ص ٢٤/ب ، وفيض القدير ج ١ ، ص ١٠ ، وفتح الباري ج ١٣ ، ص ٢٩٥ ..
- ٤٨- التنبئة ص ١٨/ب.
- ٤٩- بذل المجهود ج ١٧ ، ص ٢٠٣ .
- ٥٠- رواه البخاري في ٩٦ كتاب الاعتصام ، ١٠ - باب قول النبي صلى الله عليه وسلم- لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق رقم ٧٣١١ ، ورقم ٧٣١٢ ، ج ١٣ ، ص ٢٩٣ .
- وMuslim في: ١ - كتاب الإيمان ، ٧- باب نزول عيسى عليه السلام ، حديث رقم ١٥٦ ، ج ١ ، ص ١٣٧ .
- وفي: ٣٣ - كتاب الإمارة ، ٥٣ - باب قوله - صلى الله عليه وسلم - : لا تزال طائفة.. الخ ، رقم ١٩٢٠ ، ١٩٢١ ، ١٩٢٢ ، ١٩٢٣ ، وقطعة من حديث في الزكاة بعد هذا الموضع وهي برقم ١٠٣٧ ، ١٩٢٤ ، ١٩٢٥ ، ج ٣ ، ص ١٥٢٣ - ١٥٢٥ .
- وأبو داود في كتاب الجهاد ٤ باب دوام الجهاد ، رقم ٢٤٨٤ ، ج ٣ ، ص ١١ ، وفي: ٢٩ - كتاب الفتن والملاحم ، ١ - باب ذكر الفتن ودلائلها ، رقم ٤٢٥٢ ، ج ٤ ، ص ٤٥٢ ، والترمذى في ٣٤ كتاب الفتن ، ٣٧ - باب ما جاء في الشام ، حديث ٢١٩٢ ، ج ٤ ، ص ٤٨٥ ، و قال: حسن صحيح وفي: ٥١ - باب ما جاء في الأئمة المسلمين ، حديث ٢٢٢٩ ، ج ٤ ، ص ٥٠ ، و قال أيضاً: حسن صحيح.
- ورواه ابن ماجه في: المقدمة ١ - باب اتباع سنتن الرسول صلى الله عليه وسلم- حديث ٦ - ١٠ ج ١ ، ص ٥ ، وفي ٣٦ كتاب الفتن ٩ - باب ما يكون من الفتن ، حديث ٣٩٥٢ ، ج ٣ ، ص ٤١٣٠ .
- ورواه الدارمي في ١٦ - كتاب الجهاد ، ٣٩ - باب لا يزال طائفة من هذه الأمة... رقم ٢٤٣٧ ، ١٤٣٨ ، ج ٢ ، ص ٢ .

ورواه أحمد في مسنده: ٣٤٥ ، ٢٣٩ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

ورواه الطبراني في مواضع هذه بعضها: ج ٢ ، ص ٢٤٨ ، رقم ١٩٢٢ ، ص ٢٥٠ ،

رقم ١٩٣١ ، ص ٢٦٥ ، رقم ١٩٩٦ ، ص ٢٦٩ ، رقم ٢٠١١ ، ج ٥ ، ص ١٨٥ ،

رقم ١٩٦٧ ، ج ٨ ، ص ١٧١ ، رقم ٧٦٤٣ ، ج ١٧ ، ص ٣١٤ ، رقم ٨٦٩ - ٨٧٠

، ج ٢٠ ، ص ٣١٨ ، رقم ٧٥٤ ، ص ٤٠٢ ، رقم ٩٥٩ - ٩٦٠ .

* من تحرير أحاديثهم في الصفحة السابقة ، أما سلمة بن فضيل فأشار إلى حديثه

البخاري في خلق أفعال العباد ص ٤٢ ، ط: مؤسسة الرسالة (مع الرد على

الجهمية) ، ورواه في تاريخه الكبير ج ٤ ص ٧١ ، وحديث شرحبيل في ، ج ٤ ،

ص ٢٤٨ .

٤١- سنن الترمذى ج ٤ ، ص ٤٨٥ .

٤٢- صحيح البخاري (مع الفتح) ج ١٣ ، ص ٢٩٣ .

الخلاف بين العلماء

أسبابه .. و موقفنا منه

بقلم: الشيخ محمد صالح العثيمين

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعتذر بالله من شرور أنفسنا

ومن سيئات أعمالنا ، من يهدى الله فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادي له ، وأشهد أن

لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه

وعلى الله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليماً ، أما بعد:

فقد قال تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْحَقُّ تُقَاتِلُهُ وَلَا تَمُوْتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)).

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا الْمُرْسَلُونَ رَبُّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ

مِنْهُمَا رَجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ

رَقِيبًا)). ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُرْسَلُونَ رَبُّكُمْ وَلَا يُؤْمِنُ بِهِمْ مَنْ يُكَفِّرُ

أَكْلَمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)). أما بعد:

فإنه قد يثير موضوع هذا البحث التساؤل من كثير من قارئيه لماذا كان موضوع

البحث هذا العنوان الذي قد يكون غيره من مسائل الدين أهم منه؟ ولكن هذا العنوان

خاصة في وقتنا الحاضر يشغل بال كثير من الناس ، لا أقول من العامة بل حتى

من طلبة العلم ، وذلك أنها كثرت في وسائل الإعلام نشر الأحكام وبثها بين الأئم ،

وأصبح الخلاف بين قول فلان وقول مسلم مصدر تشويش ، بل تشكيك عند كثير من

الناس ، لا سميها من العامة الذين لا يعرفون مصادر الخلاف ، لهذا رأيت وبالله

أستعين أن يكون البحث هو هذا الأمر الذي له في نظري شأن كبير عند المسلمين ..

إن من نعم الله تبارك وتعالى على هذه الأمة أن الخلاف بينها لم يكن في أصول

دينها ومصادرها الأصلية ، وإنما كان الخلاف في أشياء لا تمس وحدة المسلمين

الحقيقية وهو أمر لا بد أن يكون ..

وقد أجملت العناصر التي أريد أن أتحدث عنها بما يأتي:

من المعلوم عند جميع المسلمين ما فهموه من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم- أن الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم- بالهدي ودين الحق ، وهذا يتضمن أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم- قد بين هذا الدين بياناً شافياً كافياً ، لا يحتاج بعده إلى بيان لأن الهدى بمعناه ينافي الضلالة بكل معاناتها ، ودين الحق بمعناه ينافي كل دين باطل لا يرضيه الله عز وجل ، ورسول الله بعث بالهدى ودين الحق ، كان الناس في عهده صلوات الله وسلامه عليه يرجعون عند النازع إليه يحكم بينهم ، ويبين لهم الحق ، سواء فيما يختلفون فيه من كلام الله ، أو فيما يختلفون فيه من أحكام الله التي لم ينزل حكمها ، ثم بعد ذلك ينزل القرآن مبيناً لها ، وما أكثر ما نقرأ في القرآن قوله: ((يسألونك عن..)) كذا ، فيجيب الله تعالى نبيه بالجواب الشافي ، ويأمره أن يبلغه إلى الناس. قال الله تعالى: ((يسألونك مَاذَا أَحِلَّ لَهُمْ فَلْ أَحِلَّ كُمْ الطَّيِّبَاتُ)) ..

((يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوُ)) الآية.

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ) الآية.

((يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ فَلْنُ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجَّ)) الآية.

((يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قَتَالٌ فِيهِ قُلْ قَتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ)) الآية.

إلى غير ذلك من الآيات التي يعلمها الكثير ، ولكن بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم- اختلفت الأمة في أحكام الشريعة التي لا تقضى على أصول الشريعة وأصول مصادرها ، ولكنه اختلف سنتين إن شاء الله بعض أسبابه.. ونحن جميعاً نعلم علم اليقين أنه لا يوجد أحد من ذوي العلم الموثوق بعلمهم وأمانتهم ودينهم يخالف ما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم- عن عدم وقصد ، لأن من اتصفوا بالعلم والديانة، فلا بد أن يكون رائدهم الحق ، ومن كان رائده الحق فإن الله سيسره له ، واستمعوا إلى قوله تعالى: ((ولَقَدْ يَسَرْنَا الْقُرْآنَ لِذَكْرِ فَهُنَّ مِنْ مُذَكَّرِ)). (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنِيسِرُهُ لِيُسِرِّى)). ولكن مثل هؤلاء الأئمة يمكن أن يحدث منهم الخطأ في أحكام الله تبارك وتعالى ، لا في الأصول التي أشرنا إليها من قبل ، وهذا الخطأ أمر لا بد أن يكون لأن الإنسان كما وصفه الله تعالى بقوله: ((وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا)) الإنسان ضعيف في علمه وإدراكه ، وهو ضعيف في إحاطته وشموله ، ولذلك لا بد أن يقع الخطأ منه في بعض الأمور ، ومع أن أسباب الخطأ كبيرة ، وبحر لا ساحل له والإنسان البصير بأقوال أهل العلم يعرف أسباب الخلاف المنتشرة ، إلا أننا سنجمل ما أردنا أن نتكلم عليه من أسباب الخطأ في الأسباب الآتية:

السبب الأول:

أن يكون الدليل لم يبلغ هذا المخالف الذي أخطأ في حكمه ، أو بلغه على وجه لا يطمئن به .

وهذا السبب ليس خاصاً فيمن بعد الصحابة ، بل يكون في الصحابة ومن بعدهم ،
ونضرب مثالين وقعوا للصحابه من هذا النوع:

الأول: هو كون الدليل لم يبلغ القائل. فإننا علمنا بما ثبت في صحيح البخاري وغيره حينما سافر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إلى الشام وفي أثناء الطريق ذكر له أن فيها وباء وهو الطاعون ، فوقف وجعل يستشير الصحابة - رضي الله عنهم - ، فاستشار المهاجرين والأنصار، واختلفوا في ذلك على رأيين .. وكان الأرجح القول بالرجوع، وفي أثناء هذه المداولة والمشاورة جاء عبد الرحمن بن عوف وكان غائباً في حاجة له ، فقال: إن عندي من ذلك علمًا ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم - يقول: «إذا سمعتم به في أرض فلا تقدموا عليه ، وإن وقع وأنتم فيها فلا تخرجو فراراً منه» ، فصار هذا الحكم خافياً على كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار ، حتى جاء عبد الرحمن فأخبرهم بهذا الحديث.

مثال آخر: كان علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وعبد الله بن عباس - رضي الله عنهم - يريان أن المعتدة الحامل إذا مات عنها زوجها تعتد بأطول الأجلين من أربعة أشهر وعشرين.. أو وضع الحمل ، فإذا وضعت الحمل قبل أربعة أشهر وعشرين لم تنتهي العدة عندهما وبقيت حتى تنتهي أربعة أشهر وعشرين ، وإذا انقضت أربعة أشهر وعشرين من قبل أن تضع الحمل بقيت في عدتها حتى تضع الحمل ؛ لأن الله تعالى يقول: ((أَوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجْلُهُنَّ أَن يَضْعَنَ حَمْلَهُنَّ)) الآية.

ويقول: ((وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذْرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصُنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا)) الآية. وبين الآيتين عموم وخصوص وجهي. وطريق الجمع بين ما بينهما عموم وخصوص وجهي أن يؤخذ بالصورة التي تجمعهما ، ولا طريق إلى ذلك إلا ما سلكه علي وابن عباس - رضي الله عنهم - ولكن السنة فوق ذلك فقد ثبت عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «في حديث سبعة الإسلامية أنها نفست بعد موت زوجها بليال فاذن لها رسول الله أن تتزوج» ، ومعنى ذلك أننا نأخذ بآية سورة الطلاق التي تسمى سورة النساء الصغرى، وهي عموم قوله تعالى: ((أَوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجْلُهُنَّ أَن يَضْعَنَ حَمْلَهُنَّ)).. وأنا أعلم علم اليقين أن هذا الحديث لو بلغ علياً وابن عباس لأخذنا به قطعاً ، ولم يذهبنا إلى رأيهما.

الثاني: ربما يكون الحديث قد بلغ الرجل ولكنه لم يثق بناقهه ورأى أنه مخالف لما هو أقوى منه ، فأخذ بما يراه أحرى منه، ونحن نضرب مثلاً أيضاً ليس فيمن بعد الصحابة، ولكن في الصحابة أنفسهم. فاطمة بنت قيس - رضي الله عنها - طلقها زوجها آخر ثلاث تطليقات فأرسل إليها وكيله شعيراً نفقة لها مدة العدة ، ولكنها سخطت الشعير وأبى أن تأخذه ، فارتقعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم - فأخبرها النبي أنه لا نفقة لها ولا سكنى وذلك لأنه أبانها ، والمبانة ليس لها نفقة ولا سكنى على زوجها إلا أن تكون حاملاً لقوله تعالى: ((وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفَقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضْعَنَ حَمْلَهُنَّ)) الآية.

عمر - رضي الله عنه - ناهيك عنه فضلاً وعلمًا ، خفيت عليه هذه السنة ، رأى أن لها النفقة والسكنى ورد حديث فاطمة باحتمال أنها قد نسيت فقال: أنترك قول ربنا لقول امرأة لا ندري أذكري أم نسيت؟ وهذا معناه أن أمير المؤمنين عمر - رضي الله

عنه - لم يطمئن إلى هذا الدليل ، وهذا كما يقع لعمر ومن دونه من الصحابة ومن دونهم من التابعين ، يقع أيضاً لمن بعدهم من أتباع التابعين ، وهكذا إلى يومنا هذا بل إلى يوم القيمة أن يكون الإنسان غير واثق من صحة الدليل ، وكم رأينا من أقوال لأهل العلم فيها أحاديث يرى بعض أهل العلم أنها صحيحة فيأخذون بها ويرأها الآخرون ضعيفة فلا يأخذون بها نظراً لعدم الوثوق بنقلها عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

السبب الثاني:

أن يكون الحديث قد بلغه ولكنه نسيه ، وجل من لا ينسى ، كم من إنسان ينسى حديثاً ، بل قد ينسى آية ، رسول الله صلى الله عليه وسلم - «صلى ذات يوم في أصحابه فأسقط آية نسياناً ، وكان معه أبي بن كعب - رضي الله عنه - ، فلما انصرف من صلاته قال: هلا كنت ذكرتنيها» **وهو الذي ينزل عليه الوحي ، وقد قال له ربه ((سُنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى))** ، ومن هذا - أي: مما يكون الحديث قد بلغ الإنسان ولكن نسيه - قصة عمر بن الخطاب مع عمار بن ياسر - رضي الله عنهم - حينما أرسلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم - في حاجة، فأجبنا جميعاً عمار وعمر، أما عمار فاجتهد ورأى أن طهارة التراب كطهارة الماء، فتمرغ في الصعيد كما تمرغ الدابة، لأجل أن يشمل بذنه التراب كما كان يجب أن يشمله الماء وصلى ، أما عمر - رضي الله عنه - فلم يصل. ثم أتيا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - فأرشدهما إلى الصواب، وقال لعمر: إنما كان يكفيك أن تقول بيديك هكذا - وضرب بيديه الأرض مرة واحدة ثم مسح الشمال على اليمين ، وظاهر كفيه ووجهه ، وكان عمر - رضي الله عنه - يحدث بهذا الحديث في خلافة عمر ، وفيما قبل ذلك ، ولكن عمر دعاه ذات يوم ما هذا الحديث الذي تحدث به؟ فأخبره وقال: أما تذكر حينما بعثنا رسول الله في حاجة، فأجبناه فأما أنت فلم تصل وأما أنا فترغت في الصعيد ، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : إنما كان يكفيك أن تقول هكذا هكذا. ولكن عمر لم يذكر ذلك وقال: اتق الله يا عمار ، فقال له عمار: إن شئت بما جعل الله علي من طاعتك أن لا أحدث به فعلت ، فقال له عمر: نوليك ما توليت - يعني فحدث به الناس - فهذا عمر نسي أن يكون النبي - صلى الله عليه وسلم - جعل التيم في حال الجناية كما هو في حال الحد الأصغر ، وقد تابع عمر على ذلك عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - ، وحصل بينه وبين أبي موسى - رضي الله عنهم - مناظرة في هذا الأمر فأورد عليه قول عمار لعمر ، قال ابن مسعود: ألم تر أن عمر لم يقنع بقول عمار ، فقال له أبو موسى: دعنا من قول عمار ، ما تقول في هذه الآية - يعني آية المائدة - ، فلم يقل ابن مسعود شيئاً ، ولكن لا شك أن الصواب مع الجماعة الذين يقولون أن الجنب يتيم كما أن المحدث حدثاً أصغر يتيم ، والمقصود أن الإنسان قد ينسى فيخفي عليه الحكم الشرعي ، فيقول قوله لا يكون به معذوراً لكن من علم الدليل فليس بمعذور ، هذان سببان.

والسبب الثالث:

أن يكون بلغه وفهم منه خلاف المراد ..

فخضرب لذلك مثالين ، الأول من الكتاب والثاني من السنة:

١ - من القرآن قوله تعالى: ((وَإِن كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامْسَتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَبَرَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا)) الآية.

اختلاف العلماء - رحمهم الله - في معنى ((أَوْ لَامْسَتُمُ النِّسَاءَ)) ، ففهم بعض منهم أن المراد مطلق اللمس ، وفهم آخرون: أن المراد به اللمس المثير للشهوة ، وفهم آخرون أن المراد به الجماع ، وهذا الرأي رأي ابن عباس - رضي الله عنه - .

وإذا تأملت الآية وجدت أن الصواب مع من يرى أنه الجماع ؛ لأن الله تبارك وتعالى ذكر نواعين في طهارة الماء ، طهارة الحدث الأصغر والأكبر ، ففي الأصغر قوله: ((فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ)) أما الأكبر ف قوله: ((وَإِن كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطْهَرُوا)) الآية. وكان مقتضي البلاغة والبيان أن يذكر أيضاً موجبي الطهارتين في طهارة التييم ، ف قوله تعالى: ((أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّنَ الْغَائِطِ)) إشارة إلى موجب طهارة الحدث الأصغر.. و قوله: ((أَوْ لَامْسَتُمُ النِّسَاءَ)) الآية.. إشارة إلى موجب طهارة الحدث الأكبر.. ولو جعلنا الملامسة هنا بمعنى اللمس لكان في الآية ذكر موجبين من موجبات طهارة الحدث الأصغر ، وليس فيها ذكر لشيء من موجبات طهارة الحدث الأكبر وهذا خلاف ما تقضيه بلاغة القرآن ، فالذين فهموا الآية أن المراد به مطلق اللمس قالوا: إذا مس إنسان ذكر بشرة الأنثى بشهوة انتقض وضوؤه ، ولغير شهوة لا ينتقض ، والصواب عدم الانتقض في الحالين ، وقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم- قبل إحدى نسائه ، ثم ذهب إلى الصلاة ولم يتوضأ ، وقد جاء من طريق يقوي بعضها بعضاً.

كذلك مثال آخر: لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم- من غزوة الأحزاب ، ووضع عنده الحرب جاءه جبريل فقال له: إنا لم نضع السلاح فاخرج إلىبني قريظة ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم- أصحابه بالخروج وقال: «لا يصلين أحد العصر إلا في بنى قريظة» الحديث ، فقد اختلف الصحابة في فهمه ، فمنهم من فهم أن مراد الرسول: المبادرة إلى الخروج حتى لا يأتي وقت العصر إلا وهم في بنى قريظة ، فلما حان وقت العصر وهم في الطريق صلوها ولم يؤخروها إلى أن يخرج وقتها.

ومنهم من فهم: أن مراد رسول الله صلى الله عليه وسلم- أن لا صلوا إلا إذا وصلوا بنى قريظة فأخروها حتى وصلوا بنى قريظة فأخرجوها عن وقتها.

ولا ريب أن الصواب مع الذين صلوا الصلاة في وقتها ؛ لأن النصوص في وجوب الصلاة في وقتها محكمة ، هذا نص مشتبه ، وطريق العلم أن يحمل المتشابه على المحكم.. إذن من أسباب الخلاف أن يفهم من الدليل خلاف مراد الله ورسوله ، وذلك هو السبب الثالث.

السبب الرابع:

أن يكون قد بلغه الحديث لكنه منسوخ ولم يعلم بالناسخ ، فيكون الحديث صحيحاً والمراد منه مفهوماً ولكن منسوخ ، والعالم لا يعلم بنسخه فحينئذ له العذر لأن الأصل عدم النسخ حتى يعلم بالناسخ.

من هذا رأي ابن مسعود - رضي الله عنه - .. ماذا يصنع الإنسان بيديه إذا ركع؟. كان في أول الإسلام يشرع للمصلحي التطبيق بين يديه ووضعهما بين ركبتيه ، هذا هو المشروع في أول الإسلام ، ثم نسخ ذلك ، وصار المشروع أن يضع يديه على ركبتيه ، وثبت في صحيح البخاري وغيره النسخ ، وكان ابن مسعود - رضي الله عنه - لم يعلم بالنسخ فكان يطبق بين يديه ، فصل إلى جانب علامة والأسود؟ ، فوضعوا يديهما على ركبتيهما ، ولكنه - رضي الله عنه - نهاهما عن ذلك وأمرهما بالتطبيق.. لماذا؟ لأنه لم يعلم بالنسخ والإنسان لا يكلف إلا وسع نفسه.. قال تعالى: ((لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسَعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)) الآية.

السبب الخامس:

أن يعتقد أنه معارض بما هو أقوى منه من نص أو إجماع ، بمعنى أنه يصل الدليل إلى المستدل ، ولكنه يرى أنه معارض بما هو أقوى منه من نص أو إجماع ، وهذا كثير في خلاف الأئمة ، وما أكثر ما نسمع من ينقل الإجماع ولكنه عند التأمل لا يكون إجماعاً.

ومن أغرب ما نقل في الإجماع أن بعضهم قال: أجمعوا على قبول شهادة العبد. وآخرون قالوا: أجمعوا على أنها لا تقبل شهادة العبد. هذا من غرائب النقل ؛ لأن بعض الناس إذا كان من حوله اتفقوا على رأي ، ظن أن لا مخالف لهم ، لاعتقاده أن ذلك مقتضى النصوص فيجتمع في ذهنه دليلاً: النص والإجماع ، وربما يراه مقتضى القياس الصحيح والنظر الصحيح فيحكم أنه لا خلاف ، وأنه لا مخالف لهذا النص القائم عنده مع القياس الصحيح عنده والأمر قد كان بالعكس.

ويمكن أن نمثل لذلك برأي ابن عباس - رضي الله عنهما - في ربا الفضل. ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم- أنه قال: «إنما الربا في النسيئة» ، وثبت عنه في حديث عبادة بن الصامت وغيره: «إن الربا يكون في النسيئة وفي الزيادة». وأجمع العلماء بعد ابن عباس على أن الربا قسمان: ربا فضل، وربا نسيئة، أما ابن عباس فإنه أبى إلا أن يكون الربا في النسيئة فقط ، مثاله: لو بعت صاعاً من القمح بصاعين يبدأ بيد فإنه عند ابن عباس لا بأس به ، لأنه يرى أن الربا في النسيئة فقط ، وإذا بعت مثلاً مثقالاً من الذهب بمثقالين من الذهب يبدأ بيد عنده أنه ليس ربا ، لكن إذا أخرت القبض، فأعطيتني المثقال ولم أعطك البدل إلا بعد التفرق فهو ربا.. لكن ابن عباس - رضي الله عنهما - يرى أن هذا الحصر مانع من وقوع الربا في غيره، ومعلوم أن (إنما) تفيد الحصر، فيدل على أن ما سواه ليس بربا ، لكن الحقيقة أن ادل

عليه حديث عبادة بدل على أن الفضل من الربا لقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : «من زاد أو استزداد فقد أربى» .

إذاً ما موقفنا نحن من الحديث الذي استدل به ابن عباس؟ موقفنا أن نحمله على وجه يمكن أن يتفق مع الحديث الآخر الدال على أن الربا يكون أيضاً في الفضل: بأن نقول: إما الربا الشديد الذي يعمد إليه أهل الجاهلية والذي ورد فيه قوله تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَّا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً)) الآية. إنما هو ربا النسيئة، أما ربا الفضل فإنه ليس الربا الشديد العظيم ، ولهذا ذهب ابن القيم في كتاب (إعلام الموقعين) إلى أن تحريم ربا الفضل من باب تحريم الوسائل ، وليس من باب تحريم المقاصد.

والسبب السادس:

أن يأخذ العالم بحديث ضعيف ويستدل استدلالاً ضعيفاً. وهو كثير جداً ، فمن أمثلته: أي أمثلة الاستدلال بالحديث الضعيف: ما ذهب إليه بعض العلماء من استحباب صلاة التسبيح ، وهو أن يصلى الإنسان ركعتين ، يقرأ فيها بالفاتحة ، ويسبح خمس عشرة تسبيحة ، وكذلك في الركوع والسجود إلى آخر صفتها التي لم أضبطها ، لأنني لا أعتقدها من حيث الشرع. ويرى آخرون أن صلاة التسبيح بدعة مكروهة ، وأن حديثها لم يصح ، ومن يرى ذلك: الإمام أحمد - رحمه الله - ، وقال: إنها لا تصح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: إن حديثها كذب على رسول الله ، وفي الحقيقة من تأملها وجد أن بها شذوذًا حتى بالنسبة للشرع ؛ إذ أن العبادة ، إنما أن تكون نافعة للقلب ، ولا بد لصلاح القلب منها فتكون مشروعة في كل وقت وفي كل مكان ، وإنما أن لا تكون نافعة فلا تكون مشروعة ، وهذه في الحديث الذي جاء عنها يصلحها الإنسان كل يوم أو كل أسبوع أو كل شهر أو في العمر مرة ، هذا لا نظير له في الشرع ، فدل على شذوذها سندًا ومتناً ، وأن من قال أنها كذب كشيخ الإسلام فإنه مصيب ، ولذا قال شيخ الإسلام: إنه لم يستحبها أحد من الأنتم.

وإنما مثلت بها لأن السؤال عنها كثير من الرجال والنساء ، فأخشى أن تكون هذه البدعة أمراً مشروعاً ، وإنما أقول بدعة أقولها ولو كانت ثقيلة على بعض الناس لأننا نعتقد أن كل من دان الله سبحانه بما ليس في كتاب الله أو سنة رسوله فإنه بدعة. كذلك أيضاً من يأخذ بدليل ضعيف من حيث الاستدلال.

الدليل قوي لكنه من حيث الاستدلال به ضعيف ، مثل ما أخذ بعض العلماء من الحديث: «زكاة الجنين زكاة أمه».. فالمعروف عند أهل العلم من معنى الحديث أن أم الجنين إذا ذكى زكاتها زكاة له ، أي لا يحتاج إلا زكاة إذا أخرج منها بعد الذبح ، لأنه قد مات ولا فائدة من تذكيره بعد موته.

ومن العلماء من فهم أن المراد به - أي الحديث -: أن زكاة الجنين كزكاة أمه ، تكون بقطع الودجين وإنهار الدم ، ولكن هذا بعيد ، والذي يبعده أنه لا يحصل إنهاهار الدم بعد الموت.

رسول الله يقول: «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكل» ، ومن المعلوم أن لا يمكن إنها الدم بعد الموت.

هذه في الحقيقة الأسباب التي أحببت أن أنبه إليها مع أنها كثيرة وبحر لا ساحل له.. ولكن بعد هذا كله ما موقفنا؟

وما قلته في أول الموضوع أن الناس بسبب وسائل الإعلام المسموعة والمقرؤة والمرئية واختلاف العلماء أو اختلاف المتكلمين في هذه المسائل صاروا يتشككون ويقولون: من نتبع؟

تكلاثت الظباء على خراشٌ فما يدرى خراشٌ ما يصيّد وحينئذ نقول: موقفنا من هذا الخلاف ، وأعني به خلاف العلماء الذين نعلم أنهم موثوقون علمًاً وديانة، لا من هم محسوبون على العلم وليسوا من أهله؛ لأننا لا نعتبر هؤلاء علماء، ولا نعتبر أقوالهم مما يحفظ من أقوال أهل العلم.. ولكننا نعني به: العلماء المعروفيين بالنصح للأمة والإسلام والعلم.

موقفنا من هؤلاء يكون على وجهين:

١ - كيف خالف هؤلاء الأئمة لما يقتضيه كتاب الله وسنة رسوله؟ وهذا يمكن أن يعرف الجواب عنه بما ذكرنا من أسباب الخلاف ، وبما لم نذكره وهو كثير يظهر لطلاب العلم حتى وإن لم يكن متبحراً في العلم.

٢ - ما موقفنا من اتباعهم؟ من نتبع من هؤلاء العلماء؟ أيتبع الإنسان إماماً لا يخرج عن قوله ولو كان الصواب مع غيره كعادة المتعصبين للمذاهب. أم يتبع ما ترجم عنده من دليل ولو كان مخالفًا لمن ينتمي إليه من هؤلاء الأئمة؟ الجواب هو الثاني ، فالواجب على من علم بالدليل ولو خالف من خالف من الأئمة. إذ لم يخالف إجماع الأمة ، ومن اعتقد أن أحداً غير رسول الله يجب أن يؤخذ بقوله فعلاً وتركاً بكل حال وزمان ، فقد شهد لغير الرسول بخصائص الرسالة ، ولا أحد إلا يؤخذ من قوله ويترك سوى رسول الله ، ولكن يبقى في الأمر نظر لأننا لا نزال في دوامة من الذي يستطيع أن يستتبع الأحكام من هذه الأدلة؟ هذه مشكلة ؛ لأن كل واحد صار يقول: أنا صاحبها ، وهذا في الحقيقة ليس بجيد ، وأن نفتح الباب لكل من عرف أن ينطق الدليل وإن لم يعرف معناه وفحوه ، فنقول: أنت مجتهد تقول ما شئت ، فإن في ذلك فساد الشريعة وفساد الخلق والمجتمع ، والناس ينقسمون في هذا الباب إلى ثلاثة أقسام:

١ - عالم رزقه الله علمًاً وفهمًاً.

٢ - طالب علم عنده من العلم لكن لم يبلغ درجة لذلك المتبحر.

٣ - عامي لا يدرى شيئاً.

أما الأول ، فإن له الحق أن يجتهد وأن يقول ، بل يجب عليه أن يقول ما كان عليه مقتضى الدليل عنده مهما خالفه من خالقه من الناس ؛ لأنه مأمور بذلك. قال تعالى: ((أَعْلَمُهُ الَّذِينَ يَسْتَبِطُونَهُ مِنْهُمْ)) ، الآية. وهذا من أهل الاستبطاط الذين يعرفون ما يدل عليه كلام الله وكلام رسوله.

أما الثاني: الذي رزقه الله علماً ولكنه لم يبلغ درجة الأول ، فلا حرج عليه إذا أخذ بالعمومات ، والإطلاقات وبما بلغه ، ولكن يجب عليه أن يكون محترزاً في ذلك وألا يقصر عن سؤال من هو أعلى منه من أهل العلم ؛ لأنه قد يخطئ وقد لا يصل علمه إلا شيء خصص ما كان عاماً أو قيد ما كان مطلقاً أو نسخ ما يراه محكماً ، وهو لا يدري بذلك.

أما الثالث: وهو من ليس عنده علم ، فهذا يجب عليه أن يسأل أهل العلم ؛ لقوله تعالى: ((فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)) ، وفي آية أخرى: ((إِن كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * بِالْبَيِّنَاتِ وَالرُّبُرِ)) ، فوظيفة هذا أن يسأل ولكن من يسأل؟ في البلد علماء كثيرون ، وكل يقول: إنه عالم ، أو كل يقال عنه إنه عالم فمن الذي يسأل ، هل نقول: يجب عليك أن تتحرى من هو أقرب إلى الصواب فتسأله ثم تأخذ بقوله ، أو نقول: أسأل من شئت من من تراه من أهل العلم ، والمفضول قد يوفق للعلم في مسألة معينة لا يوفق لها من هو أفضل منه وأعلم ، اختلف في هذا أهل العلم:

فمنهم من يرى أنه يجب على العماني أن يسأل من يراه أوثق في علمه من علماء بلده ؛ لأنه كما أن الإنسان الذي أصيب بمرض في جسمه فإنه يطلب لمرضه من يراه أقوى معرفة في أمور الطب فكذلك هنا ؛ لأن العلم دواء القلوب ، فكما أنك تختار لمرضك من تراه أقوى فكذلك هنا يجب أن تختار من تراه أقوى علماً إذ لا فرق.

ومنهم من يرى أن ذلك ليس بواجب لأن من هو أقوى علماً قد لا يكون أعلم في كل مسألة بعينها ، يرشح هذا القول أن الناس في عهد الصحابة - رضي الله عنهم - كانوا يسألون المفضول مع وجود الفاضل ، والذي أرى في هذه المسألة أنه يسأل من يراه أفضل في دينه وعلمه لا على سبيل الوجوب ؛ لأن من هو أفضل قد يخطئ في هذه المسألة المعينة ، ومن هو مفضول قد يصيب فيها الصواب ، فهو على سبيل الأولوية والأرجح أن يسأل من هو أقرب إلى الصواب لعلمه وورعه ودينه.

وأخيراً أنسح نفسي أولاً وإخواني المسلمين ، ولاسيما طلبة العلم إذا نزلت بإنسان نازلة من مسائل العلم أن لا يتتعجل ويتسرع حتى يتثبت ويعلم فيقول ، لئلا يقول على الله بلا علم.

فإن الإنسان المفتى واسطة بين الناس وبين الله ، يبلغ شريعة الله كما ثبت عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «العلماء ورثة الأنبياء» ، «وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم- أن القضاة ثلاثة: قاض واحد في الجنة ، وهو من علم الحق فحكم به» ، كذلك أيضاً من المهم إذا نزلت فيك نازلة أن تشد قلبك إلى الله وتقتصر إليه أن يفهمك ويعلمك لاسيما في الأمور العظام الكبيرة التي تخفي على كثير من الناس ، فقد ذكر لي بعض مشايخنا أنه ينبغي على من سأله عن مسألة أن يكثر من الاستغفار مستبطاً من قوله تعالى: ((إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا * وَاسْتَغْفِرْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا)) ، لأن الإكثار من الاستغفار يوجب زوال أثر الذنوب التي هي سبب في نسيان العلم والجهل ، كما قال

تعالى: ((فَبِمَا نَقْضِيهِمْ مِّيثَاقُهُمْ لَعَنَّا قُلُوبُهُمْ قَاسِيَةٌ يُحَرِّفُونَ الْكَلَمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًا مَّمَّا ذَكَرُوا بِهِ)) الآية.
وقد ذكر عن الشافعي أنه قال:

شکوت إلى وکیع سوء حفظی فارشدني إلى ترك المعاصی
وقال: اعلم بأن العلم نور ونور الله لا يؤتاه عاصی
فلا جرم حينئذ أن الاستغفار سبباً لفتح الله على المرء..

وأسأل الله التوفيق والسداد وأن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا وأن يهب لنا منه رحمة إنه هو الوهاب والحمد لله رب العالمين أولاً وأخيراً ، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

الإرجاء والمرجئة

طرق عبد الحليم

إن من الصفات اللصيقة ببني الإنسان: العجلة في الأمور، وكيف لا، وقد قال فاطر الناس جل وعلا: ((وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا)) ، ثم من تعلى على المؤمنين بأن وجهه تلك الفطرة العجولة لديهم إلى معنى قد من العجلة ، إلا أن جالب للبر والخير ، وهو (المسارعة) إلى الخيرات ، وقد قدمت بهذه المقدمة لاستميح القارئ عذراً لمسارعتي بالكتابة في موضوع هذه المقالة عن الإرجاء والمرجئة ، رغم أنه يدخل ضمن مجموعة الكتب التي اعترفت - وأخ لي - أن نصرد رها تباعاً - بعون الله تعالى - عن الفرق الإسلامية ، والتي صدر منها بالفعل مقدمتها عن أسباب التفرق والاختلاف ، وما فعلت ذلك إلا بعد أن قدرت مدى الحاجة إلى إظهار عوار تلك الفئة التي ما زالت جرثومتها خافية تارة ، وظاهرة تارات بين صفوف المسلمين - بل وعجبًا! بين صفوف المسلمين منهم - فتصيب ذلك الكيان الإسلامي بالضعف والوهن وقدان القدرة على تمييز الخبيث من الطيب ، ومعرفة المفسد من المصلح ، وبالتالي أثرها البالغ السوء في الواقع الإسلامي أخلاقياً وسياسياً.

ونحن لا نعتزم الخوض في هذه العجالة في تفاصيل مذهب (الإرجاء) ومناقشته أصحابه فيما ذهبوا إليه ، أو الإتيان على ذكر كافة فروع المرجئة التي انقسمت إليها ، إلا أننا سنذكر اختصاراً ما ذهبت إليه المرجئة بشكل عام في بدعتهم ، ثم نعرّج بنقض تلك الأقوال وبيان وجه الحق فيها كما اخترته أهل السنة والجماعة ، ثم نلقي نظرة على الواقع الإسلامي لنرى مدى تأثره بتلك الجرثومة الإرجائية التي لازالت تنتقل في الجسد الإسلامي، لتخرب فيه نخراً يفسد عليه قوته ، و يجعله عرضة للتفكك والانهيار. بعد أن يفسد المحكوم ويطغى الحاكم ويمهد لكليهما سبل الزيغ والانحراف.

الإرجاء: مصدر أرجأ بمعنى آخر ، يقال: أرجأ الأمر أي آخر. وقد أطلق هذا الاسم على طائفة المرجئة لما قالوا بتأخير العمل عن الإيمان، أي فصله عنه وتأخير مرتبته في الأهمية كذلك لعدم حكمهم على الفاسق أو الكافر بما هو أهل له ، وادعاء

إرجاء ذلك إلى يوم الحساب وتدور عقائد المرجئة حول الإيمان ، إذا ذهب أكثرهم إلى أنه التصديق بالقلب والإقرار باللسان - عدا بعضهم من زعم أنه تصديق القلب ولم يشترط أنه النطق بالشهادتين مع القدرة عليهما - ولم يدخلوا العمل في مسمى الإيمان ، ف بالإيمان عند هؤلاء متحقق كاملاً لمن صدق بالرسالة ونطق بالشهادتين ، وإن لم يأتي بعمل من أعمال الطاعات!.

وقد دخلت عليهم تلك البدع من أصل تصورهم للإيمان ، وأنه واحد لا يتجزأ ولا يتبعض^(١) ، أي لا يزيد ولا ينقص.

وقد تمسكت المرجئة في أقوالهم تلك بما ادعوه من أن معنى الإيمان في اللغة: التصديق، كما في قوله تعالى: ((وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا)) ، أي: مصدق لنا. كذلك بظواهر الأحاديث ، كما في قوله - صلى الله عليه وسلم - ، فيما رواه مسلم بسنده عن أبي هريرة قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله» ، وفيما رواه مسلم بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - له: «فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة».

وقالوا: إن تلك الأحاديث تدل على أن الإيمان هو: تصديق القلب والتفظ بالشهادتين ، وهم كافيان لإثبات الإيمان ودخول الجنة دون العمل!.

وقد تجاوز بعض من ابتلاهم الله بشبه الإرجاء ؛ فلم يكتفوا بإخراج أعمال الطاعات من الواجبات والمستحبات من مسمى الإيمان بل كذلك الأعمال الازمة لتحقيق التوحيد، كالحكم بما أنزل الله من الشرائع - والذي هو من معاني الشهادتين والمتعلق بتوحيد الوهية الله عز وجل - ولم لا؟! والإيمان محله القلب والتصديق متحقق؟! وما يضر من يترك التحاكم بغير إثم أو ذنب يقتربه مثله كمثل سارق البرتقالة ، أو من يؤذني جاره؟!.

فأتوا بذلك بما لم يأت به الأولون من أسلاف المرجئة ، ومهدوا لما سلقي عليه نظرة عاجلة في واقع المجتمع الإسلامي.

ونقض مذهب الإرجاء يكون بطريقتين: أحدهما: عام ، يتناول نقض مبادئهم في النظر إلى الشريعة - وهو ما اشتركت فيه معهم سائر أهل البدع والأهواء - ، والآخر: خاص ، يتناول الرد على أقوالهم قوله قولًا ، وبيان فسادها بالأدلة الشرعية.

وسنتناول كل طريق منهما بشكل موجز ، يتناسب مع ما قدرناه لهذا المقال من إيجاز.

أولاً - رد العام:

سلك أهل البدع والأهواء طرفةً معينة في دراستهم للنصوص الشرعية ، أدت بهم إلى النتائج التي وصلوا إليها ، نجملها فيما يلي:

١ - عدم الجمع بين أطراف الأدلة ، وذلك باتباعهم أول دليل يرونـه دالاً - من جهة معينة - على ما أرادوه ، فإذا صادفوا دليلاً آخر لم يجمعوا بينه وبين الأول ، بل

أولوه أو ضعفوه أو أخفوه ! بينما (أخذ الأدلة عند الأئمة الراسخين إنما هو على أن تؤخذ الشريعة كالصورة الواحدة بحسب ما ثبت من كلياتها وجزئياتها المترتبة عليها ، وعامها المترتب على خاصها ، ومطلقها المحمول على مقيدها ، ومجملها المفسر بمبنها ، إلى ما سوى ذلك من مناحيها).

٢- الاحتجاج بالأحاديث الضعيفة أو الم موضوعة، مع ترك الأحاديث الصحيحة وإغفالها، بينما مسلك أهل السنة هو في اتباع الحديث الصحيح وما يصح الاحتجاج به في الأحكام الشرعية ، سواء ما صح أو حسن حسب قواعدهم في ذلك.

٣- التعويل على جزئيات الشريعة دون ربطها بالقواعد الكلية التي تحكمها وتنظمها.

٤- تحريف الأدلة عن مواضعها ، وهو نوع من تحريف الكلم عن مواضعه الذي ذمه الله تعالى في كتابه ، وذلك بإيراد الدليل المقصود به مناط معين أو واقعة محددة لتطبيقه على مناط آخر - أو واقعة أخرى - وهي العملية التي تسمى عند الأصوليين: (تحقيق المناط) ، ولا شك أن (من أقر بالإسلام ويذم تحريف الكلام عن مواضعه لا يلجم إلية صرحاً إلا مع اشتباه يعرض له وجهل يصده عن الحق ، مع هوى يعميه عن أخذ الدليل مأخذة فيكون بذلك السبب مبتدعاً).

فإطلاق الدليل وتوهم أنه يعم كافة الحالات الداخلة تحته دون تقييد فهو من جملة من حرف الكلم عن مواضعه وصار إلى الابداع بدلاً من الاتباع. [الاعتصام ٢٢٣/١].

ثانياً - النقض الخاص:

إن ما استدل به المرجئة من أن الإيمان هو التصديق فليس ب صحيح ، والحق أن الإيمان اسم شرعي استعمله الشارع ليدل به على معانٍ محددة في الشرع ، هي مجموعة الأقوال والأفعال التي يترکب منها ، فلا مدخل للمعنى اللغوي إذ (ما ينبغي أن يعلم أن الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث إذا عُرف تفسيرها وما أريد بها من جهة النبي صلى الله عليه وسلم- لم يتحت في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة وغيرهم).

[الإيمان لابن تيمية : ٢٤٥].

هذا إلا أن الإيمان لا يعني لغة التصديق من وجوه عدّة (فإنه يقال للمخبر إذا صدقته: صدقه ، ولا يقال: آمنه وآمن به ، بل يقال: آمن له ، كما قال: ((فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ)) ، وقال: ((فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ)) «فإن تعدد باللام كقوله: آمن له ، كان تصدِيقاً وإن تعدد بالباء كان الإيمان الشرعي المتضمن للعمل.

[الإيمان : ٢٤٨].

ذلك فإن قسم الإيمان ليس التكذيب بل الكفر ، فيقال لمن لم يصدق: قد كذب ، ومن لم يؤمن: قد كفر.

ووجه آخر في لفظ التصديق والتكذيب: يطلق على ما هو غائب أو مشاهد ، أما لفظ الإيمان فلا يستعمل إلا في الخبر عن الغيب [الإيمان : ٢٤٩].

والإسلام والإيمان اسمان يدلان على معنى واحد إن انفردا ، وهو الاستسلام لله والعبودية له سبحانه ظاهراً وباطناً ، لكنهما إن اجتمعا دل كل منهما على معنى غير

الآخر ، فدلل الإسلام على الأعمال الظاهرة من الصلاة والصوم والحج ، ودلل الإيمان على الأعمال الباطنة ، كالخشية والمحبة والخوف ، من أعمال القلوب . وقد دلت الآيات والأحاديث على أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان - وعليه أجمع الصحابة والتابعون وسلف الأمة - فهو: قول وعمل ، يزيد وينقص ، يزيد بالطاعات ، وينقص بالمعاصي ، قال تعالى: ((لَيَزِدُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ)). وما رواه مسلم بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «الإيمان بضع وسبعون شعبة أو بضع وستون شعبة أفضلاها قول لا إله إلا الله ، وأدنىها إماتة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان». كذلك ما رواه مسلم بسنده عن ابن عباس في حديث وفاة القيس ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تؤدي خمساً من المغنم».

فالإيمان - إذن - قول وعمل ، قول القلب وهو: التصديق ، وعمل القلب: وهو: الإقرار والخضوع المستلزم للمحبة والانقياد ، وقول اللسان: وهو: النطق بالشهادتين ، وعمل اللسان والجوارح ، وهو العمل بالطاعات ، وترك المحظورات من الشريعة ، وهو يزيد وينقص .

ثم ننظر إلى استدلال المرجئة - سلفاً وخلفاً - بأحاديث الشفاعة على أن قول الشهادتين تلفظاً يثبت لصاحبة الإسلام والإيمان ، وإن أتى عملاً من أعمال الكفر ، كترك التحاكم إلى الشرع ، فنرى أنها هي طرق أهل البدع في عدم جمع أطراف الأدلة ، والنظر في الأحاديث .

قالوا: روى مسلم بسنده عن عمر بن الخطاب في حديث جبريل: قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتوتري الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحجج البيت إن استطعت إليه سبيلاً». وأغفلوا الرواية التالية لها مباشرة في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتوتري الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان».

كذلك حديث أركان الإسلام الذي رواه مسلم بسنده عن عبد الله بن عمر عن أبيه ، قال عبد الله: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان».

وأغفلوا رواية مسلم الأخرى: في الباب نفسه عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم - قال: «بني الإسلام على خمسة: على أن يُوحَّد الله ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان ، والحج».

وغير ذلك من الأحاديث التي ذكرها فيها رواية وأسقطوا روایات ، والتي تدل على أن التلفظ بالشهادتين المعتبر شرعاً هو توحيد الله وعبادته ، وترك الشرك ، وأن التلفظ بالشهادتين دلالة على قيام ذلك المعنى في النفس وفي البدن قولاً و عملاً ؛ ما

لم يأت بعمل ظاهر يكفر به ، فلا اعتبار حينئذ بتلفظ ، وهو المعنى الذي ذكره ابن القيم في إعلام الموقعين من أن الألفاظ تراد لمعانيها لا لذواتها وما فصله من اعتبار النيات والمقاصد في الألفاظ . [مسلم بشرح النووي ١٥٧١].

وبعد .. فما هي الدوافع التي أدت إلى ظهور المرجئة في التاريخ؟ وما هي عوامل بقائهم واستمرارهم؟ لذلك الأمر تفصيل يضيق عنه نطاق هذا المقال ولكن لا بد من كلمتين توفيان بالغرض في هذا المقال.

أما عن بداية الإرجاء فقد زعم بعض من تناول ذلك الأمر أنها ترجع إلى موقف بعض الصحابة إبان إطلال الفتنة برأسها عند إرهادات قيام الدولة الأموية ، وهم الذين لم يشاركوا في تلك الفتنة إلا أننا نرى أن ذلك تزيد معيب على تلك الفترة يحملها أكثر مما تطيق ، و يجعلها نواة كل فساد ظهر في تاريخ المسلمين بعدها ، وما اعترض بعض الصحابة الفتنة إرجاءً بل إن منهم من لاح له وجه الصواب فاتبعه ، ومنهم من غمض عليه جلية الأمر فآخر السلامة وحسب..! وهو موقف معتمد في مثل تلك الظروف أن يشارك البعض ويعتزل البعض الآخر! ، ولعل بعض المفكرين يخرج علينا بأن هؤلاء - كذلك - هم نواة المعتزلة ؛ لاعتزالهم ذلك الأمر!!! . [انظر إعلام الموقعين ٣/٥٠].

وما نرتضيه في هذا المقام إيجازاً أن مذهب الإرجاء يتاسب مع من يتمتع في موقفه ويؤثر السلامة على المخاطرة وإن كانت بالباطل ، فإن من تلفظ بالشهادتين مؤمن بإيمان جبريل! والأعمال لا تدل على إيمان وفسق أو حتى كفر ، وليس لنا أن نزيف الباطل ونظهر عوار المفسد وندل على سوءاته ونسير فيه سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم- في معادلة الفاسق أو المذنب أو الكافر ، فمن ثم فهو مذهب يتاسب مع الحاكم الظالم - أو الحاكم الكافر حسب الحالة - فلن يثير أرباب هذا المذهب خلافاً مع الحاكم مهما أتى من أفعال ، فهو مؤمن على كل حال ، أليس يتلفظ بالشهادتين؟! ثم ما لنا ندخل في سرائر الناس وندعي معرفة مكونات صدورهم ، مadam العمل الظاهر لا مدخل له في قضية الإيمان ، وأن اعتقاد القلب هو المعول عليه في ذلك ، أليس يكفي ما ينطق به الحاكم لنكون معه في صف واحد ومسيرة واحدة نهادنه ونتعذر له المرة تلو المرة لنظل نعيش نتفياً ضلال حكمه ، وإن ظهرت منا في بعض الأحيان - أو كلها - معاقبة أو معارضة فإنما هي معاقبة التصديق ، ونصح الأخ المؤمن لأخيه ، أو هي معارضة الخاضع ، وتبرم السائر تحت اللواء! .

ثم عامل آخر قد يكون له بعض الأثر في إطلال الإرجاء برأسه ، بل هو إلى عوامل استمراريته أقرب - وهو ظهور طوائف المنتسبين إلى مذهب الخوارج فكراً وعقيدة - وإن لم يكن بالضرورة اسماً - مما يزين لمن لم يتعمق النظر في دراسة العقائد وترجيح الصالح من الفاسد من الآراء - وغالبهم من الشباب على مر التاريخ دون رعوان الفتنة الذين يعون ما هم عليه من البدعة ، بل وبعضهم يقصد إليه قصداً - أن ينتمي إلى فكر الإرجاء قولاً وعملاً - دون تسمية ودون وعي منهم بذلك ولا إدراك لحقيقة مذهب السلف الصالح ، وهذا التصرف كرد فعل غير مدروس

للأفكار التي تجنب للتطرف والغلو في فهم العقيدة في الجانب الآخر ، وكلا جناحي الإفراط والتغريط إن هي إلا ردود أفعال سلبية للحكم غير الم مشروع الذي يسود المجتمعات الإسلامية في أي عصر من عصورها.

فالإرجاء إذن مذهب سياسي - أو قل: موقف سياسي - اتخذ طابع البحث في أوليات العقائد مع استشارة تلك الموجة في بداية عصر الأمويين وظهور علم الكلام - كما بینا عوامل ذلك في مقدمة أسباب الاختلاف - كان موقفاً سياسياً في الحكم الظالمين ، يوم أن كانوا لا يزبون يحكمون شرع الله ، وإن تجاوزوا الحد وأفتروا في الظلم ، ثم استمر على ذلك النهج منهاجاً للضعاف ممن يريدون مهادنة الظالم ومبرير مواقف الضعف والخزي ، حتى وإن تجاوز الظلم إلى الكفر ، ومن هنا نرى أن المرجئة لم يكونوا هدفاً للسلطة الغاشمة الظالمة في عصر من العصور ، بل كان منهم شعراء وعمال للحكام ، ثابت قطنة الذي كان والياً ليزيد بن المهلب على بعض التغور ، بل إنه مذهب يصلاح أن يدعوه الحاكم نفسه ليكون بربداً وسلاماً على كافة الطوائف المبدعة.

فالمرجئة - إذن - في صلح خفي ومهادنة غير مكتوبة مع الحاكم يتمتعون بالحرية في الحركة والقول جمياً ، بينما يضرب على يد من سواهم من أهل السنة والجماعة ، كما حدث لأنّمة الفقه والحديث ، كمالك وأحمد بن حنبل وابن تيمية ، وكثيرين غيرهم من اتبعوا منهج السلف الصالح في الفهم عن الكتاب والسنة.

وليس هذه هي الكلمة الأخيرة عن الإرجاء والمرجئة كما قدمت في أول المقال ، ولكنها نفثة غلت في الصدر وارتّج بها القدر ، فلم يكن بُدّ من إظهارها!.

وقد اتبعت فيها مذهبأً أراه يعين الباحث في مثل تلك الأمور ، وهو التحليل النفسي لفهم الدوافع وراء تلك العقائد المنحرفة ، وهو مذهب ارتضيـنا في أسباب الاختلاف وسنجعلـه بعون الله تعالى أحد مصادرـنا في دراسة أمثلـ تلك الفرقـ التي تحـملـ معـولـ الـهـمـ والـخـارـابـ لـتـهـدمـ بـهـ صـرـحـ الإـسـلـامـ مـنـ دـاخـلـهـ ، عـارـفـ بـذـلـكـ أـوـ جـاهـلـةـ.

((واللهُ عَالِيٌّ عَلَىٰ أَمْرِهِ)).

دعاوة كريمة

لم تقولون ما لا تفعلون

بِقَلْمِ عَثْمَانَ جَمِيعَ ضَمِيرِيَّة

قال الله تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُنَّ مَا لَا تَفْعَلُنَّ * كَبُرَ مَقْتَنًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُنَّ)) [سورة الصاف: ٣-٢].

أخرج الإمام الطبرى في تفسيره عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ، قال: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: لو بiddenا أنَّ الله عز وجل دلَّنا على أحب الأفعال إليه فنعمل بها ، فأخبر الله تعالى نبيه ، صلَّى الله عليه وسلم- أنَّ أحب الأفعال: إيمانُ به ، لا شَكٌ فيه ، وجهادُ أهل معصيـته ، الذين خالـفـوا الإـيمـانـ ، ولم يُقـرـواـ بهـ.

فَلَمَّا نَزَلَ الْجَهَادُ، كَرِهَ ذَلِكَ نَاسٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَشَقَّ عَلَيْهِمْ أَمْرُهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَوْلُهُ: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ...)) (١).

وإذا كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، كما هو مقرر في علم الأصول ، فإن الآية الكريمة ، تبقى أبعد مدى من الحادثة الفردية التي نزلت لمواجهتها ، وأشد الحالات كثيرة غير الحالة التي نزلت بسببها ، فهي تحيط بكل حالة من الحالات التي يقع فيها الانفصام بين الإيمان والحركة به أو بين القول والعمل ، أو العلم والعمل.

والعلم لا يراد به أصلاً إلا العمل ، وكل علم لا يفيد عملاً ، ولا يتوقف عليه حفظ مقاصد الشريعة ، فليس في الشرع ما يدل على استحسانه ، والعلم المعتبر شرعاً ، الذي مدح الله تعالى ورسوله أهله ، على الإطلاق ، هو العلم الباعث على العمل ، الذي لا يخلّي صاحبه جارياً مع هداه كيما كان. بل هو المقيد صاحبه بمقتضاه ، الحامل له على قوانينه طوعاً أو كرهاً.

وعندئذ يصير العلم وصفاً من الأوصاف الثابتة لصاحبه ، يأبى للعالم أن يخالفه ؛ لأن ما صار كالوصف الثابت لا ينصرف صاحبه إلا على وفقه اعتياداً وإن تخلف فإنما يكون تخلفه لعنة أو غفلة (٢).

وليس عالماً ذاك الذي لم يعلم بعلمه ، ولا يستحق وصف التكريم هذا ، فعن علي - رضي الله عنه - قال: (يَا حَمْلَةَ الْعِلْمِ: أَعْمَلُوا بِهِ، فَإِنَّ الْعَالَمَ مِنْ عِلْمٍ ثُمَّ أَعْمَلَ، وَوَافَقَ عِلْمُهُ أَعْمَلَهُ، وَسِيَكُونُ أَقْوَامٌ يَحْمِلُونَ الْعِلْمَ، لَا يَجَازِي تِرَاقِيهِمْ تَخَالُفٌ سَرِيرَتِهِمْ عَلَانِيَتِهِمْ، وَيَخَالُفُ عِلْمُهُمْ عَمَلَهُمْ، يَقْعُدُونَ حَلْقًا، يَبْاهِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا ؛ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لِيَغُضُّ بَعْضَهُمْ عَلَى جَلِيْسِهِ أَنْ يَجْلِسَ إِلَى غَيْرِهِ وَيَدْعُهُ أُولَئِكَ لَا تَصْدُعُ أَعْمَالَهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ).

وقال الحسن البصري - رحمه الله - : (العالم الذي وافق علمه عمله ، ومن خالف علمه عمله فذلك راوية سمع شيئاً فقاله).

وقال الثوري: (العلماء إذا علوا عملاً ، فإذا عملوا شُغلاً...). وقال: (العلم يهتف بالعمل فإن أجبه وإن ارتحل) (٣).

فالذين لا يعلمون بعلمهم ولا يتسلق سلوكهم مع عملهم ، فضلاً عن أن يكونوا من الراسخين في العلم ، وإنما هم رواة أخبار وحفظة أسفار ، والفقه فيما رواه أمر آخر وراء هذا. أو هم ممن غلب عليهم الهوى فغطى على قلوبهم.

وهنا ينبغي أن يوجه اللوم ، والعتاب كل العتاب ، لمن يفعل ذلك ، وحسبك أن الله تعالى سَمِّيَ ذلك الانفصام بين القول والعمل مقتاً ، بل جعله أكبر المقتات وأشد البغض ، فقال: ((كَبَرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)).

وما سَمِّيَ الله تعالى شيئاً بهذا الاسم ، ولا أطلقه عليه إلا في أمرين: أولهما: الجدال في الله وآياته بغير سلطان وعلم ، فقال سبحانه: ((الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبَرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا)) [غافر/٣٥].

و ثانيهما: نكاح الرجل زوجة أبيه المتوفى عنها أو المطلقة ، كما كان يفعله الجاهليون ، فقال سبحانه وتعالى: ((وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ أَبَاؤُكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتَنِا وَسَاءَ سَبِيلًا)) [النساء: ٢٢].

و من هذا نعلم عظم الآفة الكبيرة والداء الخطير في الانقسام بين القول والعمل ، أو بين الإيمان والسلوك.

إن الإيمان ليس مجرد كلمات يديرها الإنسان على لسانه ، ويتحلى بها أمام الناس ويتشدق بها في المناسبات دون أن يكون لها أثرها في سلوكه وواقعه ، ودون أن تترجم إلى واقع حي يراه الناس ، فيكون هذا الواقع العملي الظاهر والالتزام مؤشراً على الإيمان الصحيح وعمقه في نفس صاحبه.

يقول صاحب الظلال - رحمه الله تعالى - :

(إن الإيمان الصحيح متى استقر في القلب ظهرت آثاره في السلوك والإسلام عقيدة متحركة، لا تطيق السلبية ، فهي بمجرد تتحققها في عالم الشعور ، تتحرك لتحقيق مدلولها في الخارج ، ولترجم نفسها إلى حركة وإلى حركة في عالم الواقع.

ومنهج الإسلام الواضح يقوم على أساس تحويل الشعور الباطن بالعقيدة وآدابها إلى حركة سلوكية لتبقى حية متصلة بالينبوع الأصيل) (٤).

والمؤمن لا يخالف قوله فعله ، وهو الذي يبدأ بنفسه أولاً فيحملها على الخير والبر ، قبل أن يتوجه بهما إلى غيره ليكون بذلك الأسوة الحسنة والقدوة المثلى لمن يدعوه ، وليكون لكلامه ذلك التأثير في نفوس السامعين الذين يدعوه ، بل إنه ليس بحاجة إلى كثير عندئذ ، فحسب الناس أن ينظروا إلى واقعه وسلوكه ، ليروا فيما الإسلام والإيمان حياً يمشي أمامهم على الأرض وليشع بنوره على من حوله ، فيضيء الطريق للسالكين ، وتنفتح عليه العيون ويقع في القلوب ، فيحمل الناس بذلك على التأسي والاتباع.. فهو يدعو بسلوكه وواقعه قبل أن يدعو بقوله وكلامه.. ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم - خير أسوة ، فقد كان عليه الصلاة والسلام إذا أمر الناس بأمر كان أشد الناس تمسكاً به ، وكان يحمل أهل بيته على ذلك قبل أن يدعو غيرهم.

وعن سعيد بن هشام قال: سألت عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - فقلت: أخبريني عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم - ، فقلت: أما تقرأ القرآن؟ فلت: بل ، قالت: «كان خلقه القرآن» (٥) ، فمهما أمره القرآن بشيء امتنله ، ومهما نهاه عنه تركه.

وهي إجابة دقيقة من عائشة - رضي الله عنها - وهي إجابة موجزة جامعة أيضاً، تحمل في طياتها كل ما يخطر على بال المرء من أخلاق الكمال وصفات العظمة ، فحسبي أن يكون عليه الصلاة والسلام ، ترجمة عملية حية لمبادئ القرآن الكريم ، فإذا أردت أن تعرف أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم - ، فانظر إلى القرآن الكريم واقرأ ما فيه من آيات تحت على الأخلاق ، وإذا أردت أن ترى القرآن الكريم

وأقعاً عملياً في حياة الناس فانظر إلى خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم- وادرس سيرته بكل وعي وعناية واهتمام وبقلب مفتوح على الخير ، وبعزيمة صادقة ، تحمل على التأسي والمتابعة .. فكل واحد منها يدل على الآخر ...

(لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أكبر قدوة للبشرية في تاريخها الطويل وكان مربياً وهادياً بسلوكه الشخصي قبل أن يكون بالكلام الذي ينطق به سواء في ذلك القرآن المنزّل أو حديث الرسول - صلى الله عليه وسلم -) (٦).

وإنها لمصيبة كبيرة ، وخسارة ما بعدها خسارة ، أن يتحول الإيمان والإسلام في سلوك أصحابه إلى كلمات ودعاؤى ، لا تتجاوز الحناجر ، وأن ينطلق المسلم ، يدعو غيره إلى البر والهدى والخير ، ولكنه يترك نفسه بمعرض عن ذلك ، ويعطيها إجازة تتمتع بها ، ولا يحملها حملًا على أن تكون سباقه إلى هذه الدعوة والعمل بمقتضاهما

ولقد نعى الله سبحانه وتعالى ، على بنى إسرائيل ، وبخاصة أولئك الأخبار فيهم ،
ووبخهم على سلوكهم ، فهم يأمرن الناس بالبر ، الذي هو جماع الخير ، ولكنهم
ينسون أنفسهم فلا يأمرن بما يأمرن الناس به ، مع علمهم بجزاء من قصر
في أوامر الله سبحانه وتعالى (٧) ، فقال: ((وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)) [البقرة: ٤٤].

وفي ظلال هذه الآية الكريمة يتحدث الأستاذ سيد قطب - رحمة الله - عن آثار الدعوة إلى الله، البر والمخالفة عنه في السلوك ، فنقول:

(ومع أن هذا النص القرآني كان يواجه ابتداءً حالة واقعة من بنى إسرائيل فإنه في إيحائه للنفس البشرية ، ولرجال الدين (٨) بصفة خاصة ، دائم لا يخص قوماً دون قوم ، ولا يعني حيلاً دون حيل.

إن آفة رجال الدين - حين يصبح الدين حرفة وصناعة لا عقيدة حارة دافعة - أنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، يأمرون بالخير ولا يفعلونه ، ويدعون إلى البر ويهملونه ويحرفون الكلام عن موضعه ، ويؤلفون النصوص القاطعة خدمة للغرض والهوى ، ويجدون فتاوى وتأويلات ، قد تتفق في ظاهرها مع ظاهر النصوص ، ولكنها تختلف في حقيقتها عن حقيقة الدين ، لتبrier أغراض وأهواء لمن يملكون المال أو السلطان ! كما كان يفعل أحبار يهود .

والدعوة إلى البر والمخالفة عنه في سلوك الداعين إليه ، هي الآفة التي تصيب النفوس بالشك ، لا في الدعوة وحدهم ، ولكن في الدعوات ذاتها ، وهي تبلبل قلوب الناس وأفكارهم أنهم يسمعون قولهً جميلاً ، ويشهدون فعلًا قبيحاً ، فتتملكهم الحيرة بين القول والفعل ، وتخبو في أرواحهم الشعلة التي توقدها العقيدة ، وينطفئ في قلوبهم النور الذي يشعه الإيمان ، ولا يعودون يثرون في الدين عندما فقدوا ثقتهم في رجل الدين^(٩) .

وَمَا أَعْظَمْ ذَنْبَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ دِينِ اللَّهِ وَيَقْوِنُونَ حِجْرَةَ عَثَرَةَ أَمَامِ الدُّخُولِ
فِيهِ

والتمسک بأحكامه؛ لأنهم بسلوکهم ذاك ينفرون الناس من الدين ، وتنطلق الألسنة المتبرجة لقول: انظروا إلى فلان.. إنه يدعونا إلى شيء ويختلفنا إلى غيره ، ولو كان ما دعونا إليه حقاً لاتبعه وتمسک به؟ فيترکون - عندئذ - الدين ، بسبب سلوکه ذاك !!

وكم يتحملون من أوزار الذين تابعوهم في سلوکهم ذاك ، إذ أنهم حملوهم على المخالفة والإثم بالإيحاء والقدوة العملية ، ولو لاتهم ما وقعوا في ذلك ، فهم الذين سنوا هذه السنة السيئة فكان عليهم إثمهم وآثام من اتبعهم فقد: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «من سن في الإسلام سنة سيئة يُعمل بها من بعده ، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء» (١٠). وقبل أن يدعو الداعية غيره إلى الخير ينبغي أن يتمسک هو به ، ولن يستطيع المريض أن يعالج مريضاً مثله ، وما أجمل الحكمة التي أجرتها الله تعالى على لسان أبي الأسود الدؤلي ، عندما قال:

يا أيها الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى كيما يصح به وأنت سقيم
ابداً بنفسك فانهها عن غيها فإن انتهت عنه فأنت حكيم
لاتنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم
وإذا كان لعدم الموافقة بين القول والعمل تلك الآثار ، فإنه ليس غريباً أن يشدد الإسلام في عقوبة الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه ، فيجعلونه وراءهم ظهرياً ، وينهون عن المنكر ويفعلونه ، وأولئك هم علماءسوء وصفوا الحق والعدل بأسنتهم وخالفوه إلى غيره ، فلم يعملوا به:

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «إن أول الناس يُقضى عليه يوم القيمة... ورجلٌ تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأتى به فعرّفه نعمه ، فعرفها ، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلّمتُ العلم وعلّمته وقرأتُ فيك القرآن. قال: كذبت ولذك تعلّمت العلم ليقال: إنك عالم وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار...» (١١). وعن أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم - يقول: «يؤتي بالرجل يوم القيمة فيلقى في النار ، فتندلق أقتاب بطنه (١٢) فيدور بها كما يدور الحمار بالرحي ، فيجتمع إليه أهل النار ، فيقولون: يا فلان ما لك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى ، كنت أمر بالمعروف ولا آتية ، وأنهى عن المنكر وأتىه» (١٣).

ودوران هذا الحمار بأقتاب بطنه يوم القيمة ، يعيد إلى الأذهان تلك الصورة المزرية البائسة لأولئك الذين حملوا التوراة ، وكثروا العمل بها ، ولكنهم لم يحملوها ، ونكصوا على أعقابهم ، فكانوا من الخاسرين ، وأولئك هم اليهود... كالحمار يحمل أثقالاً من الكتب ، ليس له منها نصيب إلا أن يشعر بتقلها على طهره ، وينوء بحملها:

((مَثَلُ الَّذِينَ حَمَلُوا التُّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلُ الْحَمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)) [الجمعة / ٥].

ولا يغيب عن ذهنك صورة ذاك الذي آتاه الله آياته ، فلم ي عمل بما آتاه الله من العلم ، فانسلخ منها كما تنسلخ الحياة من جدها وتتركه على الأرض (١٤).

((وَأَنْلَى عَلَيْهِمْ نَبَأً الَّذِي آتَيْنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتَبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَتَّلَهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَرْكُهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَقْصَصُنَ الْقَسَاصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفَسُهُمْ كَانُوا يَظْلَمُونَ)) [الأعراف: ١٧٦ - ١٧٥].

وليس هذا شأن يهود فحسب ، بل إن إخوانهم من المنافقين يلتقطون معهم في هذه السمة وينهلوون من نفس المنهل:

((وَيَقُولُونَ أَمَّنَا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطْعَنَا ثُمَّ يَتَوَلَّ فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أَوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فِرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرَضُونَ)) [النور: ٤٧ - ٤٨].

((وَيَقُولُونَ طَاعَةً إِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيْتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ)) [النساء: ٨١].

((وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُهُ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشَهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَذْلُّ الْخَصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّ سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ)) [البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٥].

هذه صورة المنافقين ، وتلك صورة يهود... فليحذر المؤمنون أن يقعوا فيما وقع فيه هؤلاء إذ ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ، ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأفعال ، من قال حسناً وعمل غير صالح ، ردد الله على قوله ، ونمن قال حسناً وعمل صالحًا ، رفعه العمل (١٥) ، وذلك بأن الله تعالى يقول: ((إِلَيْهِ يَصْعُدُ الْكَلِمُ الْطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)) [فاطر: ١٠].

وما أروع كلمة شعيب ، عليه الصلاة والسلام ، وما أكثرها إنصافاً عندما قال لقومه: ((وَمَا أَرِيدُ أَنْ أَخَالِفُكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوْكِلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)) [هود: ٨٨].

وليت الدعاء ، وليت الذين نصبو أنفسهم للعمل الإسلامي يضعون هذا المبدأ الذي أرشد إليه شعيب عليه الصلاة والسلام نصب أعينهم ، فلا يخالفون إلى ما ينهون عنه ليكون لكلامهم ذلك التأثير في نفوس المدعوين!.

وكم نجد أنساً يدعون إلى وحدة الكلمة وجمع صفوف المسلمين على الحق ، وهم أنفسهم في واقعهم دعاء فرقة وضلال ؛ يدعون إلى التمسك بكتاب الله وسنة نبيه - صلى الله عليه وسلم - وهم أبعد الناس عن الكتاب والسنة ، يقدمون آراءهم وآراء من يقلدونهم ويتبعونهم على الكتاب والسنة ، صراحة أو تأويلاً يدعون إلى الحفاظ على

الإخوة الإيمانية وحقوق الأخوة ، ولكنهم يزورون عن إخوانهم ولا يفون بحقوقهم لمجرد خلاف في الرأي أو الفهم... يتحدثون عن وجوب التثبت في نقل الأخبار ولكنهم يجرون وراء الشائعات ويرمون غيرهم فظائع التهم ، ولا يكفون أنفسهم الرجوع إلى مصدر صادق ليثبتوا فيما ينقولونه ، لئلا يظلموا إخوة لهم أو يرمونهم بتهم باطلة! يتحدثون عن تحرير الغيبة وآثارها وضررها ، ولكنهم لا يتكلمون إلا بأعراض الآخرين ولا يتذرون إلا بما يتخيلونه من سبيء الخلال ؛ ويتحدثون عن مفاسلة المشركين والعلمانيين والمرتدين والملحدين ولا يجدون بأساً أو غضاضة في مجالسهم ومداهنتهم ، بل قد يرثون في أحضانهم و يؤمّلون عندهم ويرجون ، ما لا يؤمّلون عند الله ويرجون... إلى غير ذلك من المفارقات العجيبة الغربية ، فليحذر المسلمون ذلك كله وأشباهه ، فإنها أمراض جد خطيرة ، ولها آثارها السيئة ، في حياة الدعوة والدعاة ، نسأل الله تعالى أن يلهمنا الصواب في القول والعمل ، (ونسأل الله المبتدئ لنا بنعمة قبل استحقاقها المديمة علينا مع تقصيرنا في الإتيان على ما أوجب به من الشكر بها الجاعلنا في خير أمة أخرجت للناس: أن يرزقنا فهماً في كتابه ، ثم سنة نبيه وقولاً و عملاً يؤدي به عنا حّقّه ويوجب بنا نافلة مزيدة) (١٦).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الهوامش:

- ١ - انظر المواقف في أصول الشريعة للإمام الشاطبي: ٦١/١ وما بعدها ، بتحقيق دراز.
- ٢ - المواقف ٧٥/١ - ٧٦ ، وانظر: اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي ٤٦ - ٦٣ ، فضل علم السلف على الخلف ، لابن رجب الحنفي ، مطبعة الحلب.
- ٣ - في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب: ٢٥٢٥
- ٤ - أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين برقم (٧٤٦) والترمذى في البر ، والنمسائي في قيام الليل ، وابن ماجه في الأحكام ، والدارمى: ٣٤٥/٢ ، وأحمد في المسند: ٥٤/٦ ، وانظر شمائل الرسول لابن كثير: ٥٧ - ٥٩
- ٥ - منهاج التربية الإسلامية للأستاذ محمد قطب: ١٨٣/١ ، دار الشروق.
- ٦ -- انظر: تفسير ابن كثير: ٨٦/١ ٨٧ ٠
- ٧ - استعمل هنا كلمة رجال الدين ؛ لأنه يتحدث عن هذا الصنف الذي اتخذ الدين حرفة وصناعة ، وإلا فهو رحمة الله يمكّن هذا التعبير ، إذ ليس في الإسلام طبقة كهنوت أو رجال دين كما عرفتها أوروبا مثلاً.
- ٨ - في ظلال القرآن: ٨٦/١ ، دار الشروق.
- ٩ - قطعة من حديث جرير بن عبد الله البجلي ، أخرجه مسلم في الزكاة برقم (١٠١٧) ، والنمسائي: ٧٥/٥ - ٧٧ ، وابن ماجه برقم (٢٠٣) ، وأحمد في المسند: ٣٥٧/٤ ، والدارمى: ١٣٠/١ - ١٣١ ، وفي المعنى أحاديث أخرى.
- ١٠ - قطعة من حديث أخرجه مسلم في الإمارة برقم (١٩٠٥).

- ١١ - أي تنصب أمعاؤه وتخرج من جوفه بسرعة خارجة من دبره.
- ١٢ - أخرجه البخاري في بدء الخلق: ٣٣١/٦ فتح الباري ، ومسلم في الزهد: ٢٩٩٠/٤ ٢٩٩١ - ٢٩٨٩ برقم (٢٩٨٩) واللظ له ، والإمام أحمد في المسند: ٢٠٥/٥ - ٢٠٦ ، والخطيب البغدادي في اقتضاء العلم العمل: ٥٢ برقم (٧٤) ، تحقيق الألباني ، والبغوي في شرح السنة ٣٥٢/١٤ ، وفي تفسيره أيضاً.
- ١٣ - انظر: تفسير الطبرى: ١١٩/٩ - ١٢٤ ، تفسير ابن كثير: ٢٦٥/٢ - ٢٦٨ ، تفسير المنار للشيخ رشيد رضا: ٣٧٥/٩ - ٣٨٤ ،
- ١٤ - كلمة للحسن البصري - رحمه الله - ، انظر: اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي: ٤٢ - ٤٣ ،
- ١٥ - اقتباس من افتتاحية الإمام الشافعى - رحمه الله - في الأصول (الرسالة) ، تحقيق أحمد شاكر.

خواطر في الدعوة

فقه الشافعى

بقلم: أبو أنس

(في حوار جرى بين الإمام الشافعى والإمام محمد بن الحسن الشيبانى ، قال الشافعى: ناشدتك الله ، صاحبنا (مالك بن أنس) أعلم بكتاب الله أم صاحبكم (أبو حنيفة)? قال: بل صاحبكم.

قال الشافعى: صاحبنا أعلم بسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أم صاحبكم؟ قال: بل صاحبكم.

الشافعى: صاحبنا أعلم بأقوال أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أم صاحبكم؟ قال: بل صاحبكم.

الشافعى: ما بقي بيننا وبينكم إلا القياس ، ونحن نقول بالقياس ، ولكن من كان بالأصول أعلم كان قياسه أصح) (ابن تيمية: الفتاوی ٢٠/٣٢٨).

والذى نريد أن نخلص إليه من هذا الحوار بين هذين العالمين الجليلين أن الشافعى - رضي الله عنه - رتب الأمور ترتيباً صحيحاً ، كتاب الله ، ثم سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ثم أقوال الصحابة ، وهذا الترتيب الدقيق يغفل عنه كثير من المسلمين في هذه الأيام ، بل ربما عكسوا الآية ، فيضطرب الأمر عليهم وتضيع الموازين الحقيقة مع

أنه قد ثبت في الصحيح أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله ، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة ، فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة ، فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سنًا» ، فقدم - صلى الله عليه وسلم - العلم بالقرآن على العالم بالسنة ، وقدم العلم على العمل.

روى الزهري عن عروة أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أراد أن يكتب السنن ثم تردد ، ثم قال: كتبت أردت أن أكتب السنن وإنني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتاباً فأكبوها عليها وتركوا كتاب الله تعالى ، وإنني والله لا أليس كتاب الله بشيء أبداً . (جامع بيان العلم ٦٤/١).

أراد عمر - رضي الله عنه - أن يحدد الأولويات وكأنه كان يخشى أن يهجر القرآن ويضعف العلم به ، ويكتب الناس على الشروح والحواشي لتصبح هي المصدر لفهم الإسلام دون القرآن ، كما أن الذين أسلموا حديثاً في الشام وال العراق لا تقدم لهم كل العلوم الإسلامية دفعة واحدة ، بل لا بد من تربيتهم تربية متأنية تبدأ بالوصول ثم تدرج بهم إلى الفروع والتفاصيل.

وهذا المعنى يؤكده ابن مسعود - رضي الله عنه - بقوله: (إنما هلك أهل الكتاب قبلكم أنهم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفهم وتركوا كتاب ربهم).

إن عدم ملاحظة هذا الفقه الدقيق يجعل المسلمين لا يفرقون بين المهم والأهم ، بين الواجب والضوري ، بل ربما قدم بعضهم الكمال على الضروري ، وبذلك يكونون كمن يضع العربة أمام الحصان.

مفهوم الحرية

عند الفقهاء والمحدثين في القرن الثاني

بعلم د. مصطفى السيد

ما هي الحرية؟

هل هي أن تفعل ما تريده بلا مانع أو تقول ما تشاء بلا رادع؟

تحتختلف النظرة إلى الحرية وإلى الأحرار من مجتمع إلى آخر، ومن مدرسة فكرية إلى أخرى، وكثيراً ما تجد تطورات اجتماعية أو اقتصادية أو غير ذلك لتتمد التعريف بأضواء كاشفة، أو بقيود جديدة.

وما من شك في أن للحرية مقوماتها القانونية ومكوناتها الفلسفية والتي بدونها لا تعد شيئاً لدى المذاهب الفكرية المعاصرة.

وغمي عن القول أن معرفة الحرية - ثقافياً أو نظرياً - غير ممارستها وإن كانت الأولى أصلاً في تحقق الثانية.

وإذا ما تأصل مفهوم الحرية في مجتمع ما فسيكون تأصله مطابقاً ومساوياً لمعنى الوجود والحياة ، وبدونه تبقى الحياة الإيجابية معطلة ، ووجود مثل هذا المجتمع يكون متساوياً مع وجود سقط المتعان من الأشياء.

والمجتمع الذي يؤثر الحرية سيحرسها حراسة المحبة ، بينما العبيد يحرسونها حراسة الخوف ، والمجتمع الحر هو الذي يختار ويشارك فيما يمس وجوده فرداً أو جماعة.

وفي موضوع الحرية يحلو للكثيرين أن يجعلوا من النموذج الغربي - أشخاصاً وأفكاراً - أساساً للانطلاق في أي بحث عن الحرية ، ويرى هذا الفريق - المأسور أو المبهور بحضارة الغرب - أن كل كلام في الحرية يعارض كلام الغرب وكل تصرف لا يضارع تصرفه لا يؤذن له بالدخول إلى حلبة - الفكر السامي - .

وهذه الشنسبة نجد أشباههاً لها ونظائر في عالم الأدب - ولا سيما الشعر - فلن يلتج الشعر رتاج (١) العالمية ولن تسلم للشاعر مفاتح الأدب الخالد إن لم يبلغ القلق - على المصير - منه الحلقوم ، وتأخذ الحيرة بمجامع نفسه وأن يكون الرمز بل (اللغز) هو أخص لوازم هذا الشعر فلا يفهمه إلا نفر قليل وحبداً لو استعجم فهمه حتى على قائلة!!! ، ومن لم يرزق هذه النعم قذف بـ(التقليد - والكلasicية - والعمودية) إلى آخر ما هنالك من التسميات.

وإذا كان المفكر الملحد شرقياً كان أم غربياً يبحث عن إجابات للأسئلة التي يفرضها عليه خواص الروحي وغروره المادي فإن المسلم - بفضل ما أنعم الله عليه من رؤية سليمة - لا يعيش أزمة الوجود بل أزمة الوجودية.

فوجوده محدد المعالم والأهداف - بداية ووسطاً ونهاية - من أين وإلى أين ، أما وجوديته فهي مجال كفاحه ، وكل تحد أياً كان مصدره ومهما كان هدفه يعد محكاً لاختيار حرية المسلم.

ومن هنا فإن موضوع القدر لا يحتل المساحة الواسعة في الهموم الإسلامية المعاصرة إذا ما قارنا ذلك بما يشغله هذا الموضوع من طاقات في الفكر الإلحادي.

باتهاء الثالث الأول من القرن الثاني الهجري (١٣٢ هـ) أطلت الدولة العباسية إلى الوجود، وقد قامت على أنقاض دولة بني أمية ، وإذا كان الصراع العسكري قد حسم الأمور لبني العباس فإن الصراع الثقافي لم يتحقق فيه انتصار كبير للدولة الجديدة ، وعلى سبيل المثال فإن موضوع خلق القرآن - الذي تبنّته الدولة بكل قوّة بالحوار ثم بالضغط المادي والمعنوي - كشف مكانة الدولة الثقافية وأفقدها ثقة العامة وتأييدهم وبالتالي فقدت جزءاً غير يسير من شعبيتها.

وكان ذلك بفضل الله ثم بفضل المؤسسة - الجوامعية والمسجدية - التي باتت تملك من الثبات والأصولية الراسخة ما جعلها نداءً لمواجهة كل محدث يهدّد سلامة العقيدة الإسلامية كما جعلت الجوامعية والمسجدية الانتصارات العسكرية أقل صدى وأضالل تأثيراً في فرض قيم سياسية على طائفة من الناس رأت في القرآن والسنّة قبلتها الفكرية وبوصلتها السياسية.

كما أخفقت الدولة - العباسية - في احتواء العلماء وإظهارهم بمظهر الدين يمنح الدولة الشرعية الفقهية لما تأتي وتدع من أمور ، لدفع احتتمال التناقض بين الفريقيين ولمنع الاحتجاج والسلط .

لقد شعر المحدثون والفقهاء بأن بعض التحديث والتجديد في سياسية الدولة سيتم جزء منه على حساب القيم التي يمثلونها والآراء التي يحملونها ولم يكن في الأمر حلول وسط إما ركوب الموجة ومنافسة الدولة في مسيرة التراجعات ، أو الاعتزال السلبي في الزوايا والدويرات ، أو الوقوف قولاً وعملاً بجانب ما يمثلون من قيم ويحملون من آراء ، ولقد اختار المحدثون والفقهاء التوجه الثالث الذي يعد امتداداً طبيعياً لتراثهم ، و موقفاً سلوكياً منسجماً مع رؤيتهم الفكرية ولقد رأوا أن السلطة السياسية تشكل تحدياً للحرية في - أحابين كثيرة - يعد أعظم خطراً من الخطر الكامن في عبودية الرق ، لأن عبودية الرق تعني امتلاك يمين العبد من قبل الجهة التي تملكه اقتصادياً ، وقد تكون حرية عقيدته مصونة ، أما السلطة السياسية فقد تعمل جاهدة على استبعاد الأحرار باستبعاد الأفكار ، ترغيباً أو ترهيباً ، ومما لا شك فيه أن الدولة للعلماء تعني إخضاعهم لا إخضاع جسومهم بل عقولهم وفكرهم وسلوكهم.

قال الإمام الذهبي - رحمه الله - :

لما استخلف المهدى بعث إلى سفيان (الشوري) فلما دخل عليه خلع خاتمه فرمى به إليه وقال: يا أبا عبد الله: هذا خاتمي ، فاعمل بهذه الأمة في الكتاب والسنّة.

فأخذ الخاتم بيده وقال: تأذن لي في الكلام يا أمير المؤمنين؟.

قال: نعم.

قال: أتكلّم على أنّي آمن؟.

قال: نعم.

قال: لا تبعث إلی حتى آتيك ولا تعطني حتى أسألك.

قال: فغضب ، وهم به ، فقال له كاتبه:

أليس قد أمنته؟.

قال: بلى.

فَلَمَّا خَرَجَ حَفَّ بِهِ أَصْحَابُهُ فَقَالُوا:

ما منعك وقد أمرك أن تعمل في الأمة بالكتاب والسنّة؟ .
فاستصغر عقولهم ، وخرج هارباً إلى البصرة) (٢).

ولم تكن هذه أولى محاولات (الإحاطة) بسفيان بل قد حاول المنصور قبل المهدى فلم يكن أسعده حظاً منه ، فقد لقي المنصور سفيان (في الطواف - وسفيان لا يعرفه - فضرره بيده على عاتقه وقال: أتعرفني؟ قال سفيان: لا ، ولكنك قبضت على قبضة جبار!!! .
قال: عظني يا أبا عبد الله. قال: وما عملت فيما علمت فأعظمك فيما جهلت؟ .
قال: فما يمنعك أن تأتينا؟ .

قال: إن الله قد نهى عنكم ، فقال تعالى:
((ولا ترکنوا إلى الذين ظلموا فتَمَسَّكُمُ النَّارُ)).
ثم التفت أبو جعفر إلى أصحابه ثم قال:

ألقينا الحب إلى العلماء فلقطوا إلا ما كان من سفيان فإنه أعيانا فراراً) (٣).
ولم تكن إجابة سفيان الخشنة هي الإجابة الوحيدة التي سمعها أبو جعفر من العلماء.
قال الإمام أحمد:

دخل ابن أبي ذئب على المنصور فلم يمهله أن قال الحق وقال: (الظلم ببابك فاش ،
وأبو جعفر أبو جعفر) (٤).

ولقد كانت الثقافة الجوامعية والمسجدية تثمر في مشرق الدولة ومغربها هذه الشمار وتتجلب أمثال هؤلاء الرجال ، الذين يتميزوا بإيشار حرية الرأي وإشهار وجهة نظرهم ولو دفعوا رؤوسهم ثمناً لذلك.

فعندما قدم بعد الرحمن بن أنعم - قاضي إفريقية - على المنصور سأله.
(ما رأيك في طريقك؟ قال: ما زلت في منكر وجور عظيم حتى قدمت عليك!!! فقال أبو جعفر: ما نعمل وما نصنع؟ لا يلي لنا مثلك.
قال له: أتدرى ما قال عمر بن عبد العزيز ، قال: الملك سوق ، وإنما يجلب إلى السوق ما ينفق فيها) (٥).

ولقد كان هؤلاء العلماء من فقهاء ومحدثين يعون جيداً أن كل أعطيه مادية كانت أو معنوية ليست إلا أخلالاً تقمح بها أفكارهم وتسسل بها حرثهم ، ولذا تواترت نصائحهم في التحذير من ذلك.

قال الأوزاعي فقيه بيروت - جبر الله كسرها وأ قال عثرتها -:

[لو قبلنا من الناس كل ما يعطوننا لها علينا عليهم] (٦).

ويقول المحدث مسعود بن كدام شيخ الإمام مسلم:

[من صبر على الخل والبقل لم يستعبد] (٧).

ويقول محمد بن مبارك الصوري (ت ٢١٥ هـ):

[كذب مؤمن - ادعى المعرفة بالله - ويداه ترعى في قصاع المستكشرين ، ومن وضع يده في قصعة غيره ذلت رقبته] (٨).

وهكذا تسترّقُهم مطالب دنيوية أو مقتنيات عرضية وكان ذلك - بفضل الله - سبباً لحرية تفكيرهم وحرية تعبيرهم.

عرّج الرشيد على المدينة وهو في طريقه إلى الحج فبعث إلى الإمام مالك بكبس فيه خمسمائة دينار ، فلما قضى نسكه وقدم المدينة أرسل إلى مالك رسولًا يقول له:

[إن أمير المؤمنين يحب أن تنتقل معه إلى مدينة السلام - بغداد - فقال مالك للرسول ، قل له: (المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون والمال عندي على حاله)] (٩).

ولقد ربط الإمام الشافعي بين التعلق بالدنيا والمذلة فقال:

[من غلبه شدة الشهوة للدنيا لزمه العبودية لأهلهما] (١٠).

وفي هذا المعنى يقول بشر الحافي - رحمه الله -:

[من أحب الدنيا فليتھيأ للذل] (١١).

ولقد تعرّض الفقهاء والمحدثون لسياسة الدولة الاقتصادية ونقدوا مظاهر الإسراف والتبذير ، فقد قال سفيان الثوري للمهدي بمنى:

[حدثني إسماعيل بن أبي خالد قال: حج عمر فقال لخازنه: كم أنفقت؟ قال: بضعة عشر درهماً وإنني أرى هاهنا أموراً لا تطيقها الجبال [١٢].

* * *

هكذا فقد كان الفقهاء والمحدثون قادرين على اتخاذ موقف ما من القضايا التي عايشوها والأحداث التي عاصروها ، وكان الموت أحد الاحتمالات التي واجهوها ، وكان ذلك أحب إليهم من أن ينبوأوا تحت عباء تبكيت نصوص الميثاق الذي أخذ عليهم بتلبيغ العلم وأن يحأروا بكلمة الحق أمام كل أحد .

وربما كان لبعضهم في العافية متسعاً ، وفي التقى ملتجأً ، ولكن أحبابهم الكريمة وقد وفوتهم العظيمة أبْتَ لهم إلا أن يتبعوا من قبلهم قولًاً وعملًاً والحمد لله على عظمة هذا الدين منبع الفضائل ، ومبعد العزائم ، ومنبت الرجال ، ومصدر الكمال .

الهؤامش:

- ١ - الرتاج: الباب العظيم ، والباب مطلقاً والجمع رَتَج . المعجم الوسيط ٣٢٦،/١
- ٢ - سير أعلام النبلاء ٢٦٢،/٧
- ٣ - العقد الفريد: ١٦٥،/٣
- ٤ - سير أعلام النبلاء: ١٤٤،/٩
- ٥ - كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القิروان وإفريقيا: ١٦٥،/١
- ٦ - حلية الأولياء ١٤٣،/٦
- ٧ - حلية الأولياء ٢١٩،/٧
- ٨ - حلية الأولياء ٢٩٨،/٩
- ٩ - جامع بيان العلم ٢٢٨،/١ وفيه آخر الحديث ، وسير أعلام النبلاء ٦٢،/٨ - ٦٣
- ١٠ - التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول ص: ٦١٢ ، د. مجاهد مصطفى بهجت .
- ١١ - البداية والنهاية ٢٩٨،/١٠

١٢ - سير أعلام النبلاء ٧/٢٦٥.

أبو بكر الطرطoshi

وكتابه : «الحوادث والبدع»

دراسة وتحليل بقلم:

أحمد عبد العزيز أبو عامر

لقد كان لعلماء الإسلام الأعلام موقف حازم من البدع والمبدعة ، في بيان حقائقهم وأساليبهم في فهم الشريعة والتحذير منهم ومحالطتهم ، مع الحث على اتباع الوحين ، واعتبارهما منهجاً للحياة ، ولما كان للطرطoshi جهد بارز في هذا الباب ؛ ومع ذلك فهو مجاهد الجهد مغمور الذكر لدى الكثير من القراء ؛ ناسب التعريف به وبأعماله وتراثه الفكري ، مع عرض كتابه في البدع ، ووقفات على ما بذل من جهد في تحقيقه. وسيكون الموضوع على النحو التالي :

أولاً: حياته وأعماله وتراثه الفكري:

هو أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أبيوب القرشي الفهري الطرطoshi ، ولد سنة ٤٥٠ هـ ، وقيل بعدها بسنة في مدينة طرطوشة بالأندلس ، وفيها نشأ وتعلم في مسجدها الكبير على يد بعض العلماء ، ثم أخذ عن (أبو الوليد الباقي) في (سرفسطة) مسائل الخلاف ، وسمع عنه وأجازه ، والذي يظهر أن والده كان عالماً أو من المشتغلين بالعلم ، ولذا وجه ابنه هذه الوجهة ، وكانت أسرته على شيء من الشراء ، ولذا عاش في وطنه حتى الخامسة والعشرين من عمره ، في كنف أهله يطلب العلم ويكتفونه مؤنة السعي وراء الرزق ، وفي سنة ٤٧٤ غادر إلى الشرق وعمره آنذاك ٢٥ سنة تقريباً ، فادى فريضة الحج ودرّس بمكة ولم يقم بها طويلاً ، فاتجه إلى بغداد حيث تلقى المزيد من العلم في المدرسة النظامية وتتجول بالبصرة ، ولقي بها القاضي الجرجاني ، وروى عنه شيئاً من أشعاره الزهدية والتي ضمنها كتابه: (سراج الملوك) وغادر العراق وعمره آنذاك حوالي الثلاثين سنة إلى بيت المقدس وفيه لبث وقتاً يعلم الناس ، ثم غادرها إلى جبل

لبنان ومنه إلى أنطاكية وكانت آنذاك محاصرة من قبل الصليبيين مما دفعه إلى ترك الشام ممماً وجهه صوب مصر ، فنزل في (رشيد) فجاءه وفد من أهل الإسكندرية يحثونه على الانتقال إليهم قاضياً بعدها قتل (بدر الدين الجمالي) القائد العبيدي عدداً من العلماء ، فاستجاب لهم ومن ثم استقر بالإسكندرية وبها تزوج وحفلت حياته بالنشاط والتدريس والتأليف مما جمع الناس حوله ، وكان لا يغادر الإسكندرية إلا لاتصال بوزراء الدولة لنصحهم وإرشادهم مما جعل له مكانة أوجرت صدر القاضي (أبو طالب بن حديد) الذي كان منتظراً منه أن يكون من حاشيته ، لكن زهد الشيخ وجرأته التي تصل أحياناً إلى نقد أحكام القاضي ، كما فعل في تحريم المؤكولات الواردة من أوربا (كالجبن الرومي).. كل ذلك حدا بالقاضي إلى كتابة تقرير فيه ورفعه للحاكم (الأفضل) الذي ما يزال يتذكر موعظة الطروشي له والتي تسمى بالقسوة فأمر الحكم بتحديد إقامته الجبرية في (مسجد جنوب الفسطاط) ولم يخرج من إقامته تلك إلا بعد قتل الأفضل ، ولما تولى (الوزير المأمون البطائحي) مكانه أكرمه وأخرجه فظل في الإسكندرية لامع النجم يفد إليه طلبة العلم من الإسكندرية ومن غيرها ، ومن أهم تلاميذه من الإسكندرية (سند بن عون) العالم الفقيه الذي خلفه في التدريس إحدى عشرة سنة ، وكذلك (ابن الطاهر بن عوف) والذي قام بنفس المهمة في التدريس ، ومن تلاميذه الآخرين (أبو بكر بن العربي المعافري) (وهو غير ابن عربي الصوفي) وكذلك (المتمهدي بن تومرت البربري).

مؤلفات الطروشي:

كان خصباً الإنتاج وقد أحصي له أكثر من عشرين مؤلفاً ومن أهمها:

- ١ - الكبير في مسائل الخلاف.
- ٢ - شرح رسالة أبي زيد القيررواني.
- ٣ - معارضة إحياء الغزالى.
- ٤ - العدة عند الكرب والشدة.
- ٥ - سراج الملوك.

وفاته:

توفي إلى رحمة الله سنة ٥٢٥ ولعل حياته امتدت بعد هذا إن صح ما نقله ابن خلkan في (وفيات الأعيان) (١).

ثانياً: كتابه (الحوادث والبدع) (٢):

قال الطروشي في مقدمته: هذا كتاب أردنا أن نذكر فيه جملأً من بدع الأمور ومحدثاتها التي ليس لها أصل في كتاب الله ولا سنة رسوله ولا إجماع ولا غيره فألفيت ذلك ينقسم إلى قسمين:

قسم يعرفه الخاصة وال العامة أنه بدعة محدثة إما محرمة وإما مكرورة.

وقسم يظنه معظمهم - إلا من عصم الله - عبادات وقربات وطاعات وسننا.

فأما القسم الأول: فلم نتعرض لذكره ، إذ كفيينا مؤنة الكلام فيه لاعتراف فاعله أنه ليس من الدين.

أما القسم الثاني: فهو الذي قصدنا جمعه ، وإيقاف المسلمين من هذه المنكرات والبدع لا مطبع لأحد في حصرها لأنها خطأ و باطل ، وذلك لا تنحصر سبليه ولا تتحصل طرقه ، وإنما الذي تحصر مداركه وتنضبط مآخذه فهو الحق لأنه أمر واحد مقصود يمكن إعمال الفكر والخواطر في استخراجه... ثم بين أبواب الكتاب الأربعه كما يلي:

١- الباب الأول: فيما انطوى عليه الكتاب العزيز من الأمور التي ظاهرها سلم جرت إلى ذلك ، مورداً بعض الآيات ومنها: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا نَظُرُنَا)) [البقرة: ٤٠] ، وذلك أن المسلمين كانوا يقولون للرسول: (راعنا) و (ارعننا) سمعك ، وهي بالعبرانية كلمة سب من الرعونة ، فكانت اليهود تقولها للنبي سباً ، فمنع الله المسلمين أن يقولوها ، وإن كانت جائزة ، لئلا تذري اليهود بذلك إلى ما لا يجوز ، وهذا في الحقيقة منع جائز في الظاهر لما كان ينطوي به إلى باطل ممنوع.

ومن ذلك قوله تعالى: ((وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ))

[الأنعام : ٦/١٠٨] ، فمنع الله سائر المسلمين من سب آلية الكفار ، وهو مباح ،
لشلا يصير طريقاً لهم إلى سب الله تعالى عند ذلك.

ثم بين أن مما يدخل في هذا الباب والتحذير من الزيادة في دين الله تعالى والنقصان منه ، قوله تعالى: ((وَقُولُوا حِطَّةً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً)) إلى قوله تعالى: ((فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ))

[الأعراف : ٧/١٦٢] .. قال أهل التأويل: طُوئِي لهم الباب ليختضوا رؤوسهم فيدخلوا سجداً منحنين متواضعين ويقولوا حطة - معناه حط عن خطاياانا - فقالوا: (حنطة) استخفافاً بأمر الله فأرسل الله تعالى عليهم رجزاً من العذاب لقوا منه ما لقوا ، لأنهم زادوا حرفًا في كلمة ، فما بالك بالابتداع والتغيير مما لم يأذن به الله ، ولم يرد في سنة رسوله.

٢ - الباب الثاني: فيما اشتملت عليه السنة من النهي عن محدثات الأمور وأورد بعضًا من الأحاديث في التحذير من الأهواء والبدع ، ومنها حديث ابن مسعود عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه خط لهم خطأ ثم خط إلى جانبه خطوطاً ، ثم قال للخط الأول: «هذا سبيل الله يدعوك إليه» وقال للخطوط: «هذا سبل الشيطان على كل سبيل منها شيطان يدعوك إليه ثم قرأ: ((وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ لَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)) ، وما رواه الشیخان أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «لتتبين سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لاتبعوهم ، قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟».

وحدث البخاري عن أبي واقد الليثي قال: «خرجنا مع النبي - صلى الله عليه وسلم - قبل خيبر ونحن حديثو عهد بكفر وللمشركين سدرة يعكفون حولها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها: (ذات أنواط) فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : الله أكبر ، إنها السنن ، لقد قلتم كما قالت بنو إسرائيل ((اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)) لتركين سنن من كان قبلكم» رواه الترمذى وصححه.

قال الطرطoshi: فانظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدراً أو شجرة يقصدها الناس ويعظمون من شأنها ويرجون البرء والشفاء من قبلها وينوطون بها المسامير والخرق فهي ذات أنواع فاقطعوها.

ثم عقد فصلاً في تعريف البدعة قال فيه: إن أصل الكلمة من الاختراع وهو الشيء الذي يحدث من غير أصل سابق ، ولا مثال احتذى ولا ألف مثله ومنه قوله تعالى: ((بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)) أي خالقها ابتداء.. وهذا الاسم يدخل فيما تختروع القلوب وما تنطق به الألسنة وفيما تفعله الجوارح والدليل على هذا ما سيدكره في أعيان الحوادث من تسمية الصحابة وكافة العلماء بداعاً للأقوال والأفعال.

٣ - الباب الثالث: منهاج الصحابة في إنكار البدع وترك ما يؤدي إليها. ساق فيها آثاراً عن بعض الصحابة توضح ذلك ، ومنها: ما رواه البخاري في كتاب الصلاة عن أم الدرداء قالت: (دخل علي أبو الدرداء مغضباً فقلت له: ما لك؟ فقال: والله ما أعرف فيهم شيئاً من أمر محمد إلا أنهم يصلون جمياً).

وروى مالك في الموطأ عن أبي سهيل بن مالك عن أبيه أنه قال: (ما أعرف شيئاً مما أدركت عليه الناس إلا النداء بالصلاحة) ، يعني الصحابة ، وذلك أنه أنكر أكثر أفعال أهل عصره ، ورآها مخالفة لما أدرك من أفعال الصحابة. روى البخاري عن أنس قال: (إنكم لتعملون أ عملاً هي أدق في أعينكم من الشعر ، كنا نعدها على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الموبقات).

قال الطرطoshi: فانظروا رحمكم الله إذا كان في ذلك الزمان طمس للحق وظهر الباطل حتى لا يعرف من الأمر القديم إلا القبلة فما ظنك بزمانك هذا ، والله المستعان. (قلت): وما ظنك أخي القارئ بزماننا هذا!!..

ثم ساق صوراً لفقه الصحابة في العبادات ومنها: عدم قصر عثمان بن عفان الصلاة في السفر ، معللاً ذلك لئلا يعتقد الناس أن الفرض ركعتان ، وقول أبي مسعود البدرى: إني لأترك الضحية وإنى لمن أيسركم مخافة أن يظن الجيران أنها واجبة ، ثم عقد باباً في

صلاة التراويح وأحكامها ، وكيف بدؤها ومستقرها ، وبين فيه أن الأصل في هذه الصلاة ما رواه الشیخان ومالك في موطئه وأبو داود في سننه عن أبي هريرة عن النبي - صلی الله علیه وسلم - : يرحب في قيام رمضان من غير أن يزمر بعزمته.. قال ابن شهاب الزهري: فتوفي رسول الله - صلی الله علیه وسلم - والأمر على ذلك في خلافة أبي بكر وصدر خلافة عمر.. ثم لما خرج عمر يوماً إلى المسجد فإذا الناس أوزع متفرقون يصلی الرجل لنفسه ويصلی بصلاته الرهط فقال عمر: (والله إني لأراني لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثل) فجمعهم على أبي بن كعب ، ولما رآهم يصلون بقارئهم قال: (نعمت البدعة) ، ثم شرح المتون التي أوردها في هذا الباب ووجه الجمع بينها ، موضحاً فيها: هل الأفضل أن تصلي في البيوت أو في المساجد والجماعات ، وعند القيام ، الفصل بين الترويحتين ، وهل يؤمهم في المصحف والقنوت ، خلص في ذلك إلى أن هذه أحكام القيام مما روي في السنة ولم يرووا فيها بشيء مما أحدثه الناس من هذه البدع من نصب المنابر عند ختم القرآن والقصص والدعاء وختم هذا الفصل ببيان الوجه الذي يدخل منه الفساد على عامة المسلمين ، وبين أن سبب الجهل والأخذ عن العلماء الجهل لقول الرسول - صلی الله علیه وسلم - : «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ولكن يقبضه بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخد الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا».

وقد صرف عمر هذا المعنى تصريفاً فقال: (ما خان أمين قط ولكنه أؤتمن غير أمين فخان) قالا لطوطoshi: ونحن نقول: ما ابتدع عالم قط ولكنه استفتني من ليس بعالم فضل وأفضل ، وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال - صلی الله علیه وسلم - : «قبل الساعة سنون خداعات يصدق فيهن الكاذب ويكتذب فيهن الصادق ويخون فيهن الأئمين ويؤتمن الخائن وينطق فيهم الروبيضة [وهو التافه الخسيس] ينطق في أمور العامة» ، وقال سفيان: (كانوا يتعدون بالله من شر فتنة العالم ومن شر فتنة العابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون).

- ٤ - الباب الرابع: في نقل غرائب البدع وإنكار العلماء لها ، ومنها ما يلي :
- ١ - القراءة بالألحان: وهو التطريب الذي ينقل القراءة إلى أوضاع لحون الأغاني من مدد المقصور ، وقصر الممدود ، وتحريك الساكن ، وتسكين المتحرك.. لاقتفاء نغمات الأغاني المطربة.. فاشتقو لها أسماء من شذر ونبر وتفريق وتعليق وهز وخز ومزمر وزجر ، فهذا مخرجه الأنف وهذا من الصدر وهذا من الشدق.. فهذا الألحان أحدثها في القرن الرابع رجال منهم (محمد بن سعيد) و (الكرماني) و (الهيثم) وغيرهم ممن هم مهجورون عند العلماء.
- ٢ - ومنها القص في المساجد: لقصص الغابريين كبني إسرائيل ، وغالبها لا يصح ، ولذا منع عمر بن الخطاب تميماً الداري عن القص في المسجد.
- ٣ - ثم عقد فصلاً عن آداب المساجد وما داخلها من البدع ، ومنها الأكل في المسجد وبناء السكن فوق المسجد والبصق به ، والسؤال فيه وإنشاد الضالة ورفع الصوت فيه.
- ٤ - ما روي من فضائل الأعمال في منتصف شعبان ، وبيان أنه لا يلتفت إليه ، وأورد قول ابن أبي مليكة رداً على ما قاله زياد البحترى: إن أجر هذه الليلة كأجر ليلة القدر ، قائلاً: لو سمعته وبيدي عصاً لضربيه.
- ٥ - بيان عدم صحة صلاة الرغائب وأنها مبتداعة من قبل ابن أبي الحمراء سنة ١٤٨ في بيت المقدس ولم يسمع بها قبله.
- ٦ - تعظيم رجب بصوم أو عبادة: لا أساس له ، بل الآثار ضده فعن أبي بكر أنه دخل على أهله وقد أعدوا لرجب فقال: ما هذا؟ فقالوا: رجب نصومه فقال: (أجعلتم رجباً كرمضان؟) ، وكره ابن عباس صيام رجب كله ، وكان ابن عمر إذا رأى الناس وما يعدون لرجب كرهه وقال: صوموا منه وأفطروا فإنه شهر تعظمه الجاهلية.
- قال الطرطوشى: فهذه الآثار تدل على أن ما يعظمه الناس فيه إنما هي نزعات من بقايا عهود الجاهلية.
- وأنهى الكتاب بفصل في جوامع من البدع ومنها:

- ١ - دخول الحمام بغير مئزر مع أهل الكتاب.
- ٢ - الإنذار للعرس والجناز للombaها والفحير.
- ٣ - البناء على القبور بالحجارة.
- ٤ - التمسح بقبر النبي - صلى الله عليه وسلم - .
- ٥ - إقامة المآتم للأموات والتصدي للعزاء.
- ٦ - خروج النساء للمقابر واتباع الجناز.

ثالثاً: تحقيق الكتاب :

١ - قام الأستاذ محمد الطالبي بتحقيق الكتاب على نسختين (نسخة مخطوطة في أسبانيا محفوظة في المكتبة القومية ، ومخطوطة في تونس بالمكتبة الأحمدية بجامع الزيتونة) مع إيراد مختلف الروايات وأضاف أحياناً بين حاصلتين بعض العناوين إضافةً وبالإضافة إلى المقارنة بين المخطوطتين عرف المحقق بعض الأعلام والموقع والكلمات ، وأرجع الآيات إلى أماكنها في المصحف وبعض الأحاديث إلى مصادرها ، مع الرجوع إلى أقوال بعض المفسرين ، وعند ذكر بعض الفرق يحيل القارئ إلى الكتب المعرفة بها.

٢ - عرف بإيجاز بالمؤلف وكتب تمهدأً عن التأليف في البدع موضحاً إنكار السلف للبدع المحدثة ، وترجمتهم في التأليف في ذمها والتحذير منها ما لم يكن المؤلف ضابطاً عارفاً بما يقوم به ولئلا يكون ذلك سبباً في إظهار الجدل مما يؤدي إلى ما يخاف عاقبته ، وهذا هو موقف الإمام مالك من تلميذه (ابن فروخ) حينما استأذنه في الرد على المبتدعة ، ثم ظهرت المؤلفات في الرد على أهل البدع ، ومنها:

- ١ - (البدع والنهي عنها) لابن وضاح (١٩٧ - ٢٨٦).
- ٢ - الرد على أهل البدع لابن سحنون (٣٥٦ - ٣٠٢).
- ٣ - الطرطoshi في كتابه هذا ، ثم بين رأي العلماء في كتابه وثناءهم عليه (كابن فردون) و (أبو شامة) وابن الحاج ، ثم بين المحقق محتويات الكتاب بإيجاز وأسلوبه في النقل موضحاً أنه استفاد ممن سبقوه ولم يذكر ذلك عنهم ، ثم بين (أسلوب المؤلف الجدلي)

موضحاً أن كتابه هذا ليس موجهاً للعموم فحسب كي يقلعوا عما هم فيه من منكرات الأمور، بل هو موجه أيضاً إلى الخصوص والمخالفين ، فهو كتاب إرشاد وتوجيه من ناحية، وكتاب جدل متهمس.. من ناحية أخرى ، ألفه مولع بمسائل الخلاف ، عارف بالأساليب المنطقية ، مناقش لكل رأي.. لا يدع فرصة تمر إلا وأبرز تناقض المخالف ودحض حجة بحجة مردداً: فإن قال .. قلنا.

ثم يبين قيمة الكتاب قائلاً: إن الكتاب يتعدى قيمته التي ألف من أجلها إلى وصفه المحيط الاجتماعي الذي قامت فيه هذه المآخذ ووصف للبيئة وأهلها بل لعدد ممن أنكروها .. وهو كتاب متين الصلة بالشعب أي إنه شعبي في تبويبه ، واستطراده ، وفي لهجته ومشاكله التي ي يريد لها حلًّا ، وإن الكتاب يهم المشتغل بالتشريع الإسلامي كما يهم المؤرخ والباحث الاجتماعي ولا غنى لمن يؤرخ لحركة الإصلاح الاجتماعي عنه ، وختم الكتاب بعده فهارس علمية هي:

١ - فهرس مراجع تحقيق النص.

٢ - فهرس الأعلام.

٣ - فهرس المصنفات الواردة في النص.

٤ - فهرس المواقع والمواقع والفرق.

٥ - فهرس الآيات وفهرس أخير للأحاديث.

رابعاً: ملاحظات وتصويبات على ما جاء في تمهيد المحقق:

١ - ما ذكره المحقق الأستاذ محمد الطالبي من عدم إشارة الطروشي في كتابه هذا إلى البدع المستحسنة ، والحقيقة أن العلماء المحققين لا يرون أن هناك بدعاً مستحسنة مستدلين بقوله تعالى: ((اليوم أكملت لكم دينكم)) الآية ، ويقول الرسول - صلى الله عليه وسلم -: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» ، مما جعل العلماء الأعلام يقولون بما يفهم من هذين الدليلين ، فهذا الإمام مالك يقول: (من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدًا خان الرسالة) ، وقال الإمام أحمد: (أصول السنة

عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب الرسول -صلى الله عليه وسلم- والاقتداء بهم وترك البدع وكل بدعة ضلاله ، والشافعي يقول: (من استحسن فقد شرع) ، وعليه يتبيّن خطأ من جعل البدع على أحكام الشريعة الخمسة ولم يجعلوها قسماً واحداً مذموماً ، وقد ذهب لهذا الرأي الخاطئ العراقي في (الفرق) عن شيخه العز بن عبد السلام ، ولتعرف أخي القارئ رد هذا الرأي انظر (الاعتصام) للشاطبي (٣) ، و(البدع والنهي عنها) لابن وضاح (٤) ، وكذلك (البدعة وأثرها السيئ في الأمة) (٥) لسليم الهمالي ، وأيضاً (تحذير المسلمين من الابتداع في الدين) (٦) لأحمد بن حجر القطري.

٢ - إن أسلوب الطرطوشي في نقاشه ونضاله فيه تأثر بأسلوب المعتزلة ، وذلك في بيانه الحكم في التشريع وإن أقيسته فقهية ، ولا يؤمن معها بالزلل.

والحقيقة أنه من الخطأ أن يتصور كثير من الباحثين أن (أهل السنة وأعني بهم أهل الحديث) لا يرون سبيل النقاش العقلي. وأن ذلك طريق أهل الكلام فقط ، وفي هذا تجن عليهم ، فأسلوب فقهاء أهل السنة وعلمائهم لا يخلو من استدلالات عقلية فيما يكتبون ويرددون ، لكنها أدلة وبراهين منطقية قائمة على تفسير القرآن والحديث ، وهذا ما بينه باستفاضة واستدلال الدكتور مصطفى حلمي في كتابه القيم (منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين) (٧) ، وكذلك د/ زاهر الألمعي في كتابه (مناهج الجدل في القرآن) (٨).

٣ - ما ذكره المحقق أنه لم يطبع على طبعة سابقة لهذا الكتاب في معرض رده على محمد دهمان الذي ذكر أنه مطبوع في تحقيقه لكتاب البدع لابن وضاح ، وكون الأستاذ المحقق لم يعثر على ما يدل على أنه مطبوع من واقع رجوعه لبعض المصادر لا يعني أنه غير مطبوع ، فلقد رأيت طبعة قديمة لهذا الكتاب مطبوعة في تونس وتحت نفقة أحد الأمراء السعوديين ومن لا يحضرني الآن ذكره.

٤ - ما ذكره المحقق من أن كتاب الطرطوشي هذا تتجلى فيه فلسفة خاصة تكشف عن بعض سر الماضي والحاضر ، فلسفة عمادها خلط الزمني بالروحي ، وضع الأمور كلها

على بساط واحد ، وهذا عجيب جداً من حضرة المحقق ومتى كان علماء الإسلام يفرقون بين الزمان والروح أو بمعنى أوضح بين الدين والسياسة؟ إنها شطحة غريبة جداً لا سيما في عصر تبين فيه سخف هذه المقالة المنقوله عن النصرانية التي تفرق بين الدين والسياسة ، أما الإسلام فهو دين ودولة ولمزيد الضوء يرجع إلى (مؤامرة فصل الدين عن الدولة) للأستاذ محمد حبيب كاظم أو (فصل الدين عن الدولة ضلاله مستوردة) للأستاذ يوسف العظم ، وقد طبعت ضمن كتاب (المنهزمون).

٥ - زعم المحقق أن حرص بعض العلماء على القتداء بالسلف وزن كل شيء في الحياة بميزان الإيمان والتقوى يمنع من التطور ! والحقيقة أن هذه التصورات غريبة جداً على كل مسلم يعرف دينه حق المعرفة ولا توجد هذه الأفكار إلا لدى العلمانيين الذي يحكمون على الإسلام حكمهم على الدين المسيحي المعروف بكنته ورهبانيته ، ولا شك أن الحرص على القيم الروحية الخالدة في الإسلام هدف سامي ، لكن تصور اتباع السلف بهذا التصور يحتاج إلى تصحيف وتعريف للإسلام من جديد ، ولبيان ذلك ودحض الشبه العلمانية في هذا الباب أنسح بالرجوع إلى الرسالة العلمية القيمة للأستاذ / سفرالحولي وهي بعنوان: (العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة).

والخلاصة أن هذا الكتاب قيم جداً في بابه ، ولكن أفكار المحقق هداه الله كما وضحت تتحتم أن تعاد طباعة الكتاب بتحقيق أكثر استيفاء بالمؤلف في التعريف به وبمؤلفاته وبتحريج الأحاديث والآثار تحريرياً علمياً على ضوء المصادر المعتمدة في علم الجرح والتعديل ، وبيان الحكم الشرعي لبعض البدع باستفاضة وتوضيح ، مع مدخل في التعريف بالبدع والمبتدعة ونهاج من ألف فيها ، خاصة وأن هذا الكتاب نادر جداً

الهواش:

١ - بتصرف من كتاب (أبو بكر الطرطoshi) د/جمال الدين الشيال ، سلسلة أعلام العرب ، العدد ٧٤

- ٢ - «الحوادث والبدع للطاطشي» من منشورات كتابة الدولة للتربية بتونس ، وطبع في المطبعة الرسمية عام ١٩٥٩ م.
- ٣ - الاعتصام للشاطبي ، نشر دار المعرفة بيروت ، تحقيق محمد رشيد رضا ، وقد نال الأستاذ / عمر الكحل رسالة الماجستير من (أصول الدين بجامعة الإمام) في تخرج أحاديث وآثار الاعتصام للشاطبي.
- ٤ - البدع والنهي عنها لابن وضاح القرطبي ، تحقيق / محمد أحمد دهمان ، نشر دار البصائر بدمشق ١٤٠٠ هـ.
- ٥ - (البدعة وأثرها السي في الأمة) للأستاذ سليم الهلالي ، نشر المكتبة الإسلامية بعمان ، الأردن ط: ١٤٠٠ هـ.
- ٦ - تحذير المسلمين من الابتداع في الدين ، لأحمد بن حجر القطري.
- ٧ - (نهج علماء الحديث والسنّة في أصول الدين) د/ مصطفى حلمي ، نشر دار الدعوة بالإسكندرية ١٩٨٢ م.
- ٨ - (نهج الجدل في القرآن الكريم) د/ زاهر عوض الألمعي ، مطبعة الفرزدق بالرياض ، وهو رسالة نال بها درجة دكتوراه من الأزهر.
- شؤون العالم الإسلامي ومشكلاته
رسالة مفتوحة إلى المجاهدين الأفغان
التحرير
- أولاً - إن تنصروا الله ينصركم.
- ثانياً - ولا تنازعوا فتفشلوا.
- ثالثاً - قد خلت من قبلكم سنن.
- رابعاً - الاستقلالية وحرية اتخاذ القرار.
- خامساً - ولا تركنوا إلى الذين ظلموا.
- سادساً - الكرامة وليس الخرافية.

سابعاً - الخاتمة.

أيها الأخوة الأحبة :

نحمد الله إليكم جلت قدرته الذي من علينا بنعمة الإسلام ، وجعلنا كالجسد الواحد إذا
اشتكي منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهور ، ونصلى ونسلم على خير خلقه
محمد بن عبد الله.. ونحييكم بتحية الإسلام تحيه من عند الله مباركة طيبة ، فالسلام
عليكم ورحمة الله وبركاته، ونسأله تعالى أن يرزقكم النصر على عدوكم ويردكم إلى دياركم
وينحتم بالصالحات أعمالنا وأعمالكم ، وبعد:

عن أنس - رضي الله عنه - : «أن رجلاً كان عند النبي - صلى الله عليه وسلم - فمر رجل فقال: يا رسول الله ، إني لأحب هذا ، فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم - : أأعلمته؟! قال: لا ، قال: أعلمك ، فللحقة فقال: إني أحبك في الله ، فقال: أحبك الله الذي أحببتي له»(١).

واستجابة لأمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نقول:

نحن المسلمين العرب نحربكم في الله:

– نحب فيكم – ومنذ القديم – الشجاعة والبطولة ، وقد حدثنا التاريخ كيف قهرتم (جنكيز خان) وما أدرك من جنكيز خان؟!!.

جنكيز خان الذي اجتاحت العالم جيوشه ، وقهـر المـمالك ، وأذعن له الجـابـرة.. لقد انتـصـرـ عـلـيـهـ أـجـدـادـكـمـ جـنـودـ الـإـسـلـامـ الـأـشـاوـسـ.ـ وأـسـقـوهـ كـفـوسـ الـذـلـ وـالـمـهـانـةـ.

ونحب فيكم الإيمان الذي لا يخبو لهيبه ، والزهد الذي يتجلّى بأروع معانيه.. ونذكر
جيداً أن بلادكم وقفت وقفـة جبـارة ضد الفـساد والانـحلـال ، وكانت حـصـونـكـم آخر
الحـصـونـ التي اجـتـاحـها أـعـدـاءـ الإـسـلـامـ.. ورـغـمـ ذـلـكـ فـلـمـ تـنـقـطـ مـقاـومـتـكـمـ ، وـلـمـ يـسـتـسـلـمـ
أـبـطـالـكـمـ ، وـبـقـيـتـ آـثـارـ الغـزوـ الـاسـتـعـمـارـيـ فيـ حدـودـ العـاصـمـةـ وـلـاـ تـكـادـ تـتـجـاـوزـهـاـ.

- ونحب فيكم الفطرة الطيبة والبساطة في كل شيء: البساطة في الملبس والمطعم ، البساطة في المسكن والمشرب .. ونحب فيكم العزائم القوية والإرادة الصلبة.

أجل إن شدة محبتنا لكم ليست سراً من الأسرار.. وإن نسيت لا أنسى أن أحد الباطنيين الحاذقين قدّم نفسه على أنه أفغاني عندما وطأت قدماه أرض العرب لأنه كان يعرف مدى محبة العرب للأفغان ، ولهذا قد استُقبل أحسن استقبال ، والتف حوله المثقفون وطلاب العلم ، وفتحت أمامه أبواب كبار المسؤولين ، وما كان يشعر طوال إقامته بأنه غريب عن وطنه وعشيرته لا بل لقد نجح في تحقيق مكاسب لم يستطع أن يحقق شيئاً منها في بلده.. ولو علم العرب موطنه الحقيقي لما استطاع أن يبيض ويفرخ في بلادنا (٢).

أيها الأخوة الأحبة: إن الحديث عن تاريخكم عذب جميل.. كما أن الحديث عن جهادكم ضد الغزاة الشيوخين أكثر عذوبة وجمالاً فجزاكم الله كل خير ، وثبتنا وإياكم على الحق وجنبكم كيد الكائدين ، مؤامرات المارقين.

إِن تَسْأَبِقُكُمْ عَلَى الْمَوْتِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ هُنَّ الْمُشَاعِرُونَ الَّتِي تَبْلُدُ ، وَبَعْثَةِ الْأَمْلِ فِي
النُّفُوسِ الَّتِي كَادَ يَسْيُطُرُ عَلَيْهَا الْيَأسُ:

لقد عمرتم نفوسنا فرحاً ببطولاتكم التي تحدث عنها العالم أجمع عبر وسائل إعلامه ،
وملأتم قلوبنا إيماناً بوعد الله لنا بالنصر والتمكين ، وذكرتمونا بجهاد رجال خير القرون
ومن نحا نحوهم وسار على نهجهم .

أيها المجاهدون الأفاضل: انطلاقاً من حرصنا على استمرار مسيرة الجهاد ، والتزاماً بقوله صلى الله عليه وسلم : «الدين النصيحة ، قلنا: لمن؟ قال: الله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»(٣).

وعن جرير بن عبد الله - رضي الله عنه قال: «بأيَّتِ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيَّاتِ الزَّكَاةِ ، وَالنَّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ» (٤).

ولأننا عشنا معكم منذ بداية محتنكم في آلامكم وأمالكم ، ونخشى أن نسكت عن حق نواه فتحل بنا عقوبة من الله سبحانه وتعالى.

لهذه الأسباب مجتمعة أحبينا أن نقدم إليكم بهذه النصائح راجين أن تدرس بعناية وروية ، وسنحاول الإيجاز قدر الاستطاعة لأن أوقاتكم ثمينة ، وفي الإشارة ما يغني عن الكلم ، وما كل ما يعلم يقال.

أولاً - إن تنصروا الله ينصركم:

قال سبحانه وتعالى:

((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرُكُمْ وَيُبَتِّلُ أَقْدَامَكُمْ)) (٥).

وقال جل من قائل:

((وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)) (٦).

((وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)) (٧).

فالنصر لا يتحقق بكثرة العدد ، ولا بشجاعة الجندي.. وإنما النصر من الله وحده لا شريك له ، ويؤمن به على عباده المؤمنين إذا توفر في أعمالهم الشيطان التاليان:

- ١ - أن تكون خالصة لوجه الله تعالى ، ليس فيها رباء ولا شرك.
- ٢ - أن يكون بما شرع الله تعالى ، قال تعالى:

((فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)) (٨).

وعن أمير المؤمنين أبي حفص - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقول:

«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهو حرجته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصييها أو امرأة ينكحها فهو حرجته إلى ما هاجر إليه» (٩).

وعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري - رضي الله عنه - قال: سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رباء ، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» (١٠).

بل وأول من تسرع بهم نار جهنم مجاهد مات في ساحة المعركة ، وكان يحب أن يذكر اسمه بعد موته مع أنه جاهد في سبيل الله.

ومن المعوقات في طريق النصر:

- أن لا يكون العمل با شرع الله وثبت بما صح من سنة المصطفى - صلى الله عليه وسلم - .. فحذار يا أخوة من البدع والخرافة وتعظيم الرجال ، والتعصب المذهبى الذميم.

- أن لا تكون النية خالصة لوجه الله ومن ذلك:

استصغار شأن الآخرين ، واتهامهم بما هم منه برآء ، وحب الرئاسة والزعامة ، والمبالغة فيما يذكر القائد عن عدد جنده وعدد العمليات والغنائم التي غنمها من العدو.

ثانياً - ولا تنازعوا فتفشلوا:

هناك خلافات وصراعات بين المجاهدين الأفغان!! هذه حقيقة لا ريب فيها ، ويعرفها أعداء الإسلام من الأمريكان ، والسوفيات ، وأجهزة المخابرات الغربية ، وتتحدث عنها الصحف والإذاعات شرقية كانت أو غربية.

ورغم ذلك فبعض الناس من الأفغان والعرب ينكرون أن تكون هناك خلافات وإذا واجهتهم بالحقائق قالوا:

إن الحديث عن هذه الخلافات يترك اثراً سلبياً ، ويقلل من أهمية المجاهدين فلتتحدث عن الإيجابيات وحدها.

وبعض الناين يحاولون إيهام الآخرين بأن المجاهدين جميعاً يلتقطون حول فلان أو فلان ، وهناك حفنة من المشاغبين خرجوا على الإجماع ، وراحوا يصطادون في الماء العكر ،

وعلى كل حال فأمر هؤلاء المشاغبين مكشوف عند الأفغان ، وهم أعداء للجهاد ودمى تحركها جهات أجنبية مشبوهة!!.

وهناك أسئلة تفرض نفسها باللحاج :

أليست هذه الردود من بعض الناس دليلاً أكيداً على وجود الخلافات؟!.

- لماذا الحرص على أن يكون الشباب الدعاة وحدهم غير عالمين بما يدور حولهم؟!.

- وماذا لو زار هؤلاء الشباب مدينة (بيشاور) وشاهدوا بأعينهم وسمعوا بأذانهم حقيقة هذه الخلافات؟!.

- لماذا لا نستفيد من تجارب إخواننا في بلاد أخرى ، لقد كانوا يخبرون شبابهم بأمور مغلوطة ويقولون لهم: إننا من النصر قاب قوسين أو أدنى... واستيقظ الشباب بعد خراب البصرة - كما يقولون - فوجدوا أنفسهم في موقف محزن جداً وما عادوا يثقون بقيادتهم ولا بغيرها وبعضهم ارتد عن الإسلام من هول الصدمة؟!.

وإذا كان أعداؤنا يضخمون هذه الخلافات ، ويرون استحالة وحدة الصف ورأب الصدع ، ويفسرون الأمور تفسيراً ليس فيه حياد ولا موضوعية... إذا كان هذا حال أعدائنا فنحن نعتقد أن الأصل وحدة الصف ، والاختلاف حالة شاذة ، ويجب أن لا تستمر ، ونملك الجرأة التي تمكنا من مواجهة مشكلاتنا بكل صراحة ووضوح.

ومن هذا المنطلق فإننا نذكر إخواننا المجاهدين بالحقائق التالية:

١ - لقد هب المسلمون الأفغان الذين لم تلوثهم الأفكار والمبادئ الشيوعية منذ عام ١٩٧٩ م يدافعون عن دينهم وأعراضهم ضد البلاشفة الذين أهلکوا الحوث والنسل وعاثوا في الأرض فساداً.. فكانت معركتهم :

معركة الإسلام ضد الجاهلية .

معركة الإسلام ضد الكفر .

معركة الإسلام ضد الباطل .

إنها معركة المسلمين جمیعاً وليس معركة جماعة من الجماعات أو هيئة من الهیئات.

٢ - المسلمين العرب الذين يتزرون بالإسلام سلوكاً وعقيدة وعبادة ومنهج حياة .. هؤلاء على مختلف اتجاهاتهم وميولهم وجماعاتهم وقفوا مع المجاهدين الأفغان في خندق واحد وحتى الدخلاء منهم جادوا بأموالهم .. ولا يجوز لجماعة من الجماعات أو حزب من الأحزاب أن يزعموا بأنهم وحدهم الذين أيدوا المجاهدين الأفغان أو أن المجاهدين جميعاً من المنتدين إليهم .

لا يجوز استغلال المساعدات التي تقدم للمجاهدين من أجل المتاجرة بشعارات حزبية ، كما أنه لا يجوز نقل صراعات هذه الجماعات إلى مخيمات الأفغان البائسة ، وإقامة أحلاف ومحاور مع جماعات هناك .. وعليينا جميعاً أن نسعى لإصلاح ذات البيت ورأب الصدع .

يستحيل اجتماع كلمة المجاهدين على حزب من الأحزاب أو جماعة من الجماعات ، وقد بذلوا محاولات من هذا القبيل ففشلوا لكنهم يؤكدون بأنهم يسيرون على ما كان عليه الرسول - صلى الله عليه وسلم - وما كان عليه الصحابة - رضوان الله عليهم - ومن تبعهم من رجال خير القرون - أي منهج أهل السنة والجماعة - .. وقد التقينا بمعظم قادة المجاهدين فقالوا لنا: إنهم يتزرون منهج أهل السنة والجماعة ، ولا يؤمنون بالبدع والخرافات .. فلماذا لا تترجم هذه القناعات إلى واقع عملي ، ولماذا نتجاهل الأصول ونحاول عبثاً جمع الناس وتوحيد كلمتهم على الفروع؟! .

٤ - نذكر أنفسنا وإخواننا المجاهدين بوجوب الصدق في القول والعمل إذا كان لا بد من اختلاف وجهات النظر ، وعليينا أن نحذف من ألفاظنا: هذا عميل ، وذاك يتاجر بالجهاد.. لا سيما إذا كانت هذه الاتهامات توجه لأبرز قادة المجاهدين الذين لا يكفرون أحداً من المسلمين ونعرف بأنهم ليسوا عملاء!! .

٥ - كان لشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - موقف رائع في حرب التتار ، فعندما طلب قائد التتار (قازان) وفداً من كبار علماء المسلمين ، ذهب شيخ الإسلام مع خصومه

من المبتدعين الذين ذاق منهم الولايات وكذلك كان موقفه في معركة (شقبح) ، أما الباطنيون فكان له معهم موقف آخر ، لقد حاربهم بعد انتصاره على التمار.

هذا - يا أيها الإخوة - وقت استنفار جميع الطاقات الإسلامية ، وليس وقت تفجير الخلافات وإثارة العرارات.

أيها الأخوة المجاهدون:

اعلموا أن إثارة الفرقة بين الدعاة إلى الله جل وعلا أشد سلاح يستخدمه أعداء الإسلام خطراً ، وأشد الضربات التي يسددها العدو تلك الضربات الداخلية التي تجعل الصفة الواحد عدة صفوف متخاصمة متحاربة.

قال تعالى:

((إِنَّ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ)) (١١).

وقال جل من قائل:

((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيْتُمْ فِئَةً فَاتَّبِعُوهَا وَادْكُرُوهُ اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا تَنَازَعُوهُو فَتَفْشِلُوا وَتَذَهَّبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوهَا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)) (١٢).

إن عدونا يرقص طرباً ويتيه غروراً بسبب هذه الخلافات ، ويحاول بذلك كافة طاقاته من أجل ديمومتها واستمرارها.

انزعوا من عقولكم - يا إخوة الإسلام - الأفكار الشاذة التي يزعم دعاتها بأنه لا بد من القضاء على الجماعات كلها لأنها منحرفة وتوحيد الناس من خلال جماعتهم التي يظنون أنها جماعة المسلمين.

حذار يا إخوة من الغرور ، وتقديس الذات ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، واعلموا بأنكم لن تنتصروا بتصفيق المصفقين ، وقوة إعلام المخالفين من غير الأفغان ، فهذه التحالفات ليست ثابتة لأنها لا تقوم على أساس متين ، وقد تبدلت مرات ومرات في السنوات الماضية.

التزموا منهج أهل السنة والجماعة وأخلصوا النية لله وحده ، ووحدوا صفوفكم بنصركم الله على عدوكم:

((إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرُكُمْ وَيُثْبِتُ أَقْدَامَكُمْ)).

ثالثاً - قد خلت من قبلكم سنن:

قال تعالى:

((قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَّنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)) (١٣).

وقال سيد قطب - رحمه الله - في تفسير هذه الآية:

(والقرآن الكريم يرد المسلمين هنا إلى سنن الله في الأرض ، يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها الأمور فهم ليسوا بداعاً في الحياة ، فالنوميس التي تحكم الحياة جارية لا تختلف والأمور لا تمضي جزافاً ، إنما هي تتبع هذه النوميس ، فإذا هم درسوها وأدركتوا مغزاها ، تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث ، وتبينت لهم الأهداف من وراء الواقع واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث ، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام ، واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق ، ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين ، لينالوا النصر والتمكين ، بدون الأخذ بأسباب النصر وفي أولها طاعة الله وطاعة الرسول) أ.ه. (١٤).

لستم - يا إخوة الإسلام - بداعاً في هذه الحياة ، وتاريخ أنبياء الله ومن سار على نهجهم من الدعاة والمصلحين على مختلف الأجيال والأزمان ملك لنا جمياً ومن أوجب الواجبات علينا دراسة هذا التاريخ لتعلم منه كيف نربط الحاضر بالماضي ، وكيف نضع الحلول الناجعة للمشكلات التي تواجهنا ، والذين لا يدرسون هذا التاريخ من المغفلين والسطحين والمتسرعين ليسوا أهلاً لقيادة العمل الإسلامي.

ومن هؤلاء المكذبين الذين نحذر إخواننا المجاهدين من شرورهم ومكائدهم:

١ - المنافقون:

وهل بين المجاهدين منافقون؟!.

وجوابنا على ذلك: نعم ، بين المجاهدين الأفغان منافقون.. وأمثال هؤلاء المنافقين كانوا يخرجون في جيش رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كما حدث في أحد وتبوك. س: ولكن نخشى أن يكون هذا القول اتهام من طرف ضد طرف آخر؟!.

ج: قلنا فيما مضى: لسنا مع طرف أو جماعة من جماعات المجاهدين وإنما نحن مع المجاهدين جمِيعاً ، ونكره ونحذر من الخوض في خلافاتهم إلا لمن أراد الإصلاح.. ومع ذلك فالمجاهدون وأصدقائهم يعرفون أن هناك منافقين بين الأفغان ، وقد باتوا يشكلون خطراً على مسيرة الجهاد.

س: هل نفاقهم اعتقادي أم عملي؟!.

ج: هؤلاء مسلمون يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ، وأكثرون من ذلك فهم يشاركون في الجهاد ، ومع ذلك فقادتهم يوالون أعداء الله من الأمريكان وغيرهم ، ويناصبون الدعاة الصادقين العداء ، ويقولون ما لا يفعلون ويحسبون كل صيحة عليهم ، ويعشقون البدع والخرافة.. هذه هي أحوالهم ولا نستطيع تعميم حكم عليهم ، لأن مشكلتهم تختلف من فرد لآخر.

أيها الأخوة المجاهدون:

لقد كثر الكلام عن هؤلاء المنافقين ، ونسمع أن أعداء الله من الأمريكان ومن نحوهم يعلقون عليهم آمالاً عريضة ، ويفدقون عليهم الأموال والهبات ، ونسمع أن خطتهم يزداد، وإذا ما اتفق الأمريكان والسوفيات على حل فسوف يستعينون بهؤلاء العملاء.. فماذا أعددتم لهذا اليوم العصيب؟!.

تعلموا يا أخوة هدي الرسول -صلى الله عليه وسلم- مع المنافقين ومن ذلك أنه -صلى الله عليه وسلم- ما كان يختار منهم قادة لسرایاهم ، ولا كان يبوح لهم بسر من أسراره ، وفوق هذا وذاك كان يعرفهم ويعرف مكائد़هم.

ولا نظن أن أوضاعكم كذلك.. فتداركوا أمركم قبل فوات الأوان واعلموا أن أشد المؤامرات التي ابتلينا بها مؤامرات المنافقين لأنها تفتت الصف الواحد ، وتبعثر الطاقات واقرأوا في كتاب الله سبحانه وتعالى ، وفي سنة المصطفى -صلى الله عليه وسلم- صفات المنافقين وأساليبهم في مواجهة الدعاة إلى الله.

٢ - الباطنيون:

لا تنتظروا خيراً أو تعلقوا آملاً على جند عبد الله بن سبأ اليهودي ، إنهم عون للطغاة المتجربيين ، وعيون للغواة المستعمررين.

قلبوا صفحات من تاريخهم الأسود ترون فيه العجب العجاب من موالة أعداء الله من التتار واليهود والصلبيين وعداوتهم لأولياء الله بدءاً بأم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - ، ومروراً بالشيوخين - أبي بكر وعمر - وانتهاءً بسائر الصحابة - رضي الله عنهم أجمعين -.

اسألوا إخوانكم الذين أكتروا بنيرانهم وشرورهم في بعض بلدان العالم الإسلامي ، ولا تصدقوا أقوالهم ووعودهم فمن صفاتهم الغدر والكذب ولن يتورع هؤلاء الباطنيون عن التعاون مع الشيوخين ، كما أنهم لن يقصروا في استغلال ظروف إخوانكم وبذل المحاولات من أجل زعزعة إيمانهم تشكيكهم بأصول دينهم.

رابعاً - الاستقلالية وحرية اتخاذ القرار :

- نحن نفهم جيداً الأسباب التي دعت المجاهدين خاصة ، والأفغان عامة إلى الالتجاء إلى بلد مجاور لبلدهم.

- ونفهم جيداً الأسباب التي دعت إلى وجود مخيمات للذين فروا بذينهم من الفقراء والمعدمين ، ومستشفيات ومستوصفات للجرحى والمشوهين من ضحايا قصف البلاشفة الشيوخين.

- ونفهم كذلك أن يقول قادة المجاهدين: ولماذا لا نستفيد من هذا الواقع الذي فرض نفسه محلياً وعالمياً؟!!

نعم ، نحن نفهم كل ما سبق ذكره ، لكننا لم نستطيع أن نفهم - ومن بداية الجهاد - لماذا اتخذ المجاهدون الذين نشق بهم من هذا البلد أو ذاك مركزاً لانطلاقتهم ، وكنا نستغرب منهم هذا الموقف لأسباب كثيرة من أشهرها ما يلي :

١ - أنشأوا مراكز قيادتهم وسائر مؤسساتهم على أرض لا يملكونها وإنما يملكونها نظام يرى خلاف ما يرون \ .

وعندما يبرم الإرهابي المجرم (رونالد ريغان) الصفقة مع السوفيات سوف يجد المجاهدون أنفسهم أمام خيارين أحلاهما مر : الاستسلام الذي يسمونه: السلام ، ولن يكون فيه خير للإسلام وال المسلمين ، أو الخروج من الأرض التي أقاموا فيها دولة ظل لهم سيكون إخراجهم أو إخراج المتطرفين (١٥) فيهم خلال أيام سوف يجد المجاهدون أنفسهم محاطين بجيش لا قبل لهم به ، وسوف تتغير الوجوه ، وتبدل المواقف ، وتغلق الأبواب التي كانت تفتح على مصاريعها عند قدوم زيد وعمرو من قادة المجاهدين.

٢ - بدأوا أنشطتهم بأموال كانوا يتلقونها من المحسنين المسلمين وغيرهم ، ثم راحوا يطورون مؤسساتهم ومكاتبهم بشكل يتناسب مع وفرة هذه الأموال ، وأصبحنا نسمع أن هذه الجماعة تملك جيشاً يربو عدد جنوده على مائة ألف ، والثانية أكثر عدداً والثالثة أقل قليلاً لكنها تملك مؤسسات توحى لمن يسمع أسماءها وكأن المجاهدين لن يغادروا المنطقة التي التجأوا إليها .

ترى هل يفكر إخواننا المجاهدون بأن هذه الموال سوف تحجب عنهم؟! .

هل فكروا - غفر الله لهم - بمرتبات هذه الجيوش الجرارة ، وهذه المؤسسات التي لا يحصى عددها؟! .

وحتى الأموال التي يدفعها المحسنون سوف تتضاءل كثيراً ، ويقل نفعها بسبب تعدد الجماعات ، لا سيما ونحن نرى أن كل جماعة تحالفت مع جماعة أخرى في البلاد العربية وغيرها ، وفوق هذا وذاك هناك محسنون يكثرون في ظروف معينة ، ويفتقدون عندما تتغير هذه الظروف!! .

٣ - إذا كانت الأرقام التي تذكرونها عن عدد قواتكم دقيقة فهي تزيد على نصف مليون مجاهد ، ومثل هذا الرقم تعجز عن تمويله دولة كبرى ، فكيف بمن لا يملكون دولة ولا موارد اقتصادية ذاتية يعتمدون عليها.

ومن جهة أخرى فحربكم مع القوات الشيعية حرب عصابات ، ومن بديهيات هذه الحرب :

الحذر الشديد من العلماء داخل الصف ، والسرية في التحرك ، والدقة في مbagحة العدو ، والاستقلالية التامة في اتخاذ القرار.

ولا تحتاج حرب العصابات إلى نصف مليون جندي ، ولا إلى نصف هذا العدد أو ربعه ، ورئما يكفي في بلد كأفغانستان عشرون ألف مجاهد وكحد أعلى ضعف هذا العدد. ولن يعجز المحسنون المخلصون في العالم الإسلامي عن تمويل مثل هذا العدد.

ولن يستطيع أعداء الله الحيلولة بينكم وبين إخوانكم في جميع بلدان العالمي الإسلامي ، ومن ذا الذي يستطيع قهركم في جبالكم ووديانكم التي سوف تحول بإذن الله إلى نيران متأججة يحترق في لهبها الشيعيون وغيرهم من أعداء الله.

هؤلاء المقاتلون (إذا كان تدریبهم جيداً ، وكانوا يتبعون قيادة واحدة) سوف تتحدث عنهم أسلحتهم وعملياتهم الناجحة ، ولا يحتاجون إلى تأييد الأمم المتحدة ، أو إلى فتح مكاتب في عواصم بلدان العالم.. وها هي الأمم المتحدة تتخذ القرار تلو القرار ضد الاعتداءات الإسرائيلية فهل تراجع نظام العدو الصهيوني عن اعتداءاته؟!.

وسوف يفجر هؤلاء المجاهدون ببطولاتهم ثورة إسلامية في تركستان والقوقاز وبخارى وسمرقند وأول الغيث قطرة ، ولا يزال الخير في أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

٤ - اعتبروا - يا إخوة الإسلام - بأخطاء غيركم - والعاقل من اتعظ بغيره -.. وآخر هذه الدروس ما حدث لمنظمة التحرير الفلسطينية - لقد بدأت منظمة فتح عملياتها داخل الأرض المحتلة في أواسط السبعينيات ، وكانت إمكاناتها متواضعة ، ومع ذلك

كانت عملياتها ناجحة .. ثم قامت منظمة التحرير الفلسطينية ، وبعد هزيمة حزيران ١٩٦٧ تعددت المنظمات التي كانت فلسطينية في ظاهرها حزبية في حقيقتها ، وأخذت الأموال على منظمة التحرير الفلسطينية ، وأصبحت ميزانيتها أقوى من ميزانية حكومة من الحكومات وصار للمنظمة مكاتب في معظم العواصم العالمية بعد أن اعترفت بها معظم بلدان العالم ، أما زعيم المنظمة فأصبح بمثابة رئيس دولة ، وصار له سفراء ومساعدون ومستشارون .. وبعد حين من الزمن التفت قادة المنظمة فوجدوا أنفسهم يقفون على أرض لا يملكونها ، وقد أخرجوا منها غير مرة كما أنهم وجدوا أنفسهم يتحركون بأموال تأتهم من هنا وهناك ، وقد تمنع عنهم في أي وقت منا لأوقات ، وقد بدأ هذا المنع فعلاً.

وأخيراً جاءت الضربة القاتلة ، ولم تكن هذه المرة من إسرائيل أو من الولايات المتحدة الأمريكية ، أو من الرجعية ، ولكنها جاءت من رفاق السلاح الذي حركتهم جهات رسمية تقدمية اشتراكية بمبرأة السوفيات.

وأخيراً ارتفعت أصوات معظم قادة المنظمة يطالبون منظمتهم العودة إلى مرحلة البداية ، والتحرر من دبلوماسية المكاتب والحلول السياسية ، ولكن هذه الأصوات جاءت بعد فوات الأوان فأصبحت كصيحة في واد أو كنفحة في رماد ، وأصحاب هذه الأصوات لم يعودوا يصلحون لمرحلة البداية بعد أن سلطت عليهم الأضواء.

خامساً - ولا تركنا إلى الذين ظلموا:

يتباكي إعلام الدول الغربية والولايات المتحدة الأمريكية على الأفغان ، ويطالب قادة هذه الدول بوجوب خروج القوات السوفياتية من أفغانستان وضرورة عودة اللاجئين إلى ديارهم. أما السوفيات فيزعمون أن هناك مؤامرة ، وأنهم كانوا مضطرين لاتخاذ هذا الموقف العسكري ، وهم حريصون على الوصول إلى حل للمشكلة الأفغانية؟! ، فما مدى هذه الدعاءات من الصحة ، ولماذا يجتمع الأميركيان وينادون بتحرير أفغانستان؟!.

لنعلم حقيقة الدور الذي تمارسه الولايات المتحدة الأميركيّة في أفغانستان ، يجب أن نأخذ بعين الاعتبار الثوابت التالية في السياسة الأميركيّة:

١ - ورثت الولايات المتحدة عن بريطانيا وفرنسا سياسة تفتیت العالم الإسلامي إلى دولات عرقية وطائفية صغيرة ومتناحرة.. وأقرب مثال على ذلك اليمن الجنوبي في أواخر السبعينات فعندما لم تجد فيه بريطانيا طائف ولا قوميات سلمته لحفنة متواطئة من الشيوعيين.

٢ - لليهود دور مهم في صنع القرار الصادر عن الإدارة الأميركيّة سواء كان هذا القرار صادراً عن إدارة البيت الأبيض أو وكالة المخابرات الأميركيّة أو (الكونغرس) ، بل وما من رئيس من رؤساء الولايات المتحدة إلا ولليهود فضل عليه.. وماذا ينتظرون المسلمين من دولة يوجهها اليهود أعداء الله وأعداء أنبيائه؟!.

٣ - يؤكد القادة الأميركيّان بأنهم ضد التطرف الديني ، ويعقدون المؤتمرات ويحيّكون المؤامرات من أجل مكافحة التطرف الديني ويصرّحون بأنهم لن يمكنوا هؤلاء المتطرفين من السيطرة على مقاليد الحكم في أي بلد من البلاد.

ومما لا شك فيه أن الأميركيّان لا يحاربون المتدينين اليهود أو النصارى بل على العكس من ذلك يستفيدون منهم في مقاومة التغلغل الشيوعي.. وكل الذي يقصدونه بقولهم: (التطرف الديني) هو الدعاة المسلمين الذين يجاهدون من أجل أن يكون الدين كله لله.. وإنّ فالأمريكيّان ضد جهادكم.

٤ - ليس في قاموس السياسة الأميركيّة شيء اسمه إنسانية ، أو شفقة ، أو رحمة ، أو خدمات بالمجان.

فعندما يقدمون المساعدات لجهة من الجهات فهذا يعني أن مصالحهم فرضت عليهم اتخاذ مثل هذا الموقف.. ومصالحهم هنا تقضي أن تكون أفغانستان مستعمرة أميركيّة..

وبعد أن ينسحب الشيوعيون منها ويكون لهم الأمر فيها ، سوف يستردون من مواردها الاقتصادية أضعاف ما قدموه من مساعدات أو يبرمون صفقة مع الاتحاد السوفيatici وفق سياسة الاتفاق على اقتسام مناطق النفوذ في العالم.

وعلى أي حال فالولايات المتحدة الأمريكية ليست مستعدة للدخول في حرب نووية مع الاتحاد السوفيatici من أجل أفغانستان.

أيها الأخوة المجاهدون: احذروا أشد الحذر من كيد الأمريكان ومكرهم ، واذكروا جرائمهم في فلسطين ولبنان ومصر وباكستان وغيرها وغيرها من بلدان العالم الإسلامي. إنهم لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ولا تعرف الرحمة ولا النخوة والمروءة سبيلاً إلى قلوبهم.

ومن أهم مخططات الأمريكان تفريغ الحركات الجهادية الإسلامية من مضمونها الجاد ، ولهم تجارب كثيرة ليس هذا موضع الحديث عنها.

إننا نعلم أن بعض قادتكم على علم بمخططات الأمريكان وأهدافهم ، ويتابع هؤلاء القادة بقلق المفاوضات التي تجري بين الأمريكان والسوفيات بشأن أفغانستان ، ولكن المشكلة الأكثر خطورة تتجلى في دور المنافقين - أو إن شئتم فقولوا (الطابور الخامس) في صفوفكم - ، وهؤلاء الذين يعتمد عليهم الأمريكان كما يعتمدون على غيرهم ممن قبلتم - غفر الله لنا ولكم - أن يكون لهم دور وأثر فعال على مسيرتكم.

لقد بدأت الهمسات تتحول إلى صيحات تنذر بالخطر ، وبدأ المنافقون يمهدون لدورهم المرتقب بقولهم:

من الخير لنا أن نعود إلى ديارنا وأرضنا ، ومن هناك سوف نستأنف الجهاد ضد الغزاة الشيوعيين .. ولو أرادوا الجهاد لأعدوا له عدته ، ولكنهم أصحاب أهواء ومصالح ، بينهم من يعرف الحكم فيمن يوالون أعداء الله من الأمريكان والأفغان وغيرهم.

أيها الإخوة المجاهدون: إنكم تعيشون ظروفاً عصبية ، فلا ينفعكم الصمت في هذه المرحلة الحرجة ولا تفوتنكم فرصة جمع صفوف المخلصين الذين يرفضون الاستسلام والهوان.

وإذا كانت هذه هي أحوال الأميركيان ومواقفهم في القديم والحديث فالبلاشفة أكثر منهم إجراماً ، وأشد كيداً وأطول باعاً.. سلوا إخوانكم في تركستان ، وألبانيا ، ويوغسلافيا ، وبلغاريا ، واليمن الجنوبي ، والعراق عام ١٩٥٩ م ماذا فعلوا بهم؟!.

لقد قتلوا الدعاة العلماء شر قتلة ، وحولوا المساجد والمدارس الإسلامية إلى مسارح واصطبلات ودور للسينما ، وجمعوا نسخ القرآن وكتب الحديث ، وأمهات كتب التاريخ والفقه والتفسير وأضرموا فيها النيران ، وهتكوا أعراض المسلمين ، واستخدموه أبشع أنواع التعذيب .. كانوا يدقون مسامير طويلة في الرأس حتى تصل إلى المخ ، كما كانوا يمشطون جسم المسجون بأمشاط حديدية حادة ، ويصبون البترول على الأحياء يميشعلون فيهم النار (١٦).

ولم يدخل السوفيات أفغانستان ليخرجوا منها ، ولذلك أسباب من أهمها: سعي الشيوعيين للحثيث من أجل السيطرة على جميع بلدان العالم وتحقيق أحلام كارل ماركس ، وستالين ، ولينين ، ومن جهة أخرى فأفغانستان مجاورة ويخشون من قيام نظام إسلامي فيها ، وآثار هذا النظام سوف تتعكس على أحوال المسلمين المضطهدين في الاتحاد السوفيaticي ، وسوف يكون هذا الحدث بمثابة إعصار يعصف بالشيوعية والشيوعيين.. وقد بدأت أجهزة الإعلام العالمية منذ فترة تتحدث عن تحرك المسلمين في تركستان حيث عجز أعداء الله خالل بضعة عقود عن اجتثاث جذور الإيمان من قلوب المسلمين في هذا البلد الطيب المعطاء.

إن السيطرة على أفغانستان قضية حياة أو موت عند البلاشفة ، وسوف يستخدمون كافة الأسلحة التي يملكونها من أجل أن لا يسيطر المجاهدون على كابل ويسقطون النظام

الشيعي الدخيل.. أما مفاوضات (جنيف) فليست أكثر من ذر للرماد في العيون ، بل وليس هذه هي المرة الأولى التي يلجأ فيها شيوعيو الكرملين إلى مثل هذه الوسائل. لقد وافقوا على إقامة دولة للمسلمين في تركستان ثم نقضوا هذا الاتفاق عندما قويت شوكتهم ، وأرسل زعيمهم (لينين) رسالة مفتوحة إلى المسلمين في بخارى وسمرقند يعدهم فيها بالاستقلال ، ومنحهم حرية العبادة وعندما نجحت ثورته قلب لهم ظهر المجن ، وتنكر لوعده ومواثيقه ، وكذلك فعل (ستالين) عندما أعلن النازيون الحرب على السوفيات وشعر أنه بحاجة إلى مساعدة المسلمين والنصارى أو تحييدهم. وهذه هي أخلاق الشيوعيين مع الناس جميعاً ، وحتى مع رفاقهم ، ويكون مثلاً على ذلك ما فعلوه مع رفاقهم الأفغان في كابل:

في عام ١٩٧٩ م قاد السوفيات انقلاباً عسكرياً ضد نائب رئيس الجمهورية حفيظ الله أمين ، لكن أمين أحبط الانقلاب وأعدم رئيس الجمهورية نور محمد تراقي.. وفي العام نفسه حاصر السوفيات قصر الرئاسة في كابل ودارت معركة بينهم وبين الحرس الجمهوري انتهت بمقتل رفيقهم حفيظ الله أمين ، ونصبوا (بابراك كارمل) بدلاً عنه ، وهما اليوم أطاحوا بكارمل ونصبوا رئيس المخابرات الجنرال محمد نجيب أميناً عاماً لحزب الشعب الديمقراطي ، وإن كانوا لم يقتلوا حتى الآن كارمل. وجاء اختيارهم لرئيس المخابرات محمد نجيب الله متزامناً مع حدثهم عن الانسحاب من أفغانستان ، فلماذا هذا الرجل بالذات.

يعلم المجاهدون أنه ليس بين الشيوعيين الأفغان من هو أشد بطشاً وأحط أخلاقاً من نجيب الله هذا.. لقد كان يدفن الأحياء ، ويمزق المصاحف أمام المعتقلين ، ويعارض عملية القتل الجماعي ، ويعيد للأذهان الأساليب الوحشية التي مارسها البلاشفة ضد المسلمين في تركستان.

وفي رسالة بعثها نجيب الله إلى الزعيم السوفيaticي غورباتشيف ردًّا على برقية تهنئة بعثها له بمناسبة تقلده منصبه الجديد ، قال نجيب الله أنه سيعمل بكل ما لديه من قوة وسيوفر

كافحة الإمكانات من أجل القضاء على (عصابات ١٧) اللصوص) أي على المجاهدين. وإنّ فأهداف السوفيات من مفاوضات جنيف واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار والمعلومات التي وصلتنا عن طريق المجاهدين وغيرهم تؤكّد بأنّ الأميركيان متّفقون مع السوفيات على طبيعة المرحلة القادمة ، وبعض هذه المعلومات تقول: لقد كان الأميركيان على علم مسبق بالتغيير الذي حصل في كابول.

وقصارى القول فإنّ مهمّة نجيب الله تلخص فيما يلي:

١ - الضرب بيد من حديد وإعادة ترتيب أجهزة السلطة لتكون في مستوى الأحداث القادمة.

٢ - شراء ذمم زعماء القبائل داخل أفغانستان وعلى الحدود الأفغانية الباكستانية ، وبعض الإخوة يرون أنّ زعماء القبائل لن يستجيبوا لمثل هذه الأساليب ، ونحن نخالفهم ونرى أنّ معظم زعماء الأعراب والقبائل كانوا نقطة ضعف في تاريخنا الإسلامي.

٣ - التسلل إلى صفوف المجاهدين عن طريق رجال المخابرات الذي يلتحقون بصفوف المجاهدين ويزعمون أنّهم فروا من الجيش الأفغاني الشيوعي ، ومهمّة رجال المخابرات هؤلاء إثارة حوادث الشغب والاعتداء على المرافق العامة في باكستان وتفجير الخلافات بين جماعات المجاهدين ، ونقل كلّ ما يحصلون عليه من معلومات إلى قيادة المخابرات في كابول.

ومن المؤسف أنّ للزعيم الشيوعي الجديد (نجيب الله) تجارب واسعة في هذا المضمار ، وقد حققت محاولاته السابقة بعض النجاح.

سادساً - الكرامة وليس الخرافات:

يتحدث معظم المجاهدين عن كرامات أجرها الله على أيديهم ، وقد كثر الحديث حول هذه المسألة ، ولو جمعنا أهم هذه الكرامات لما اتسعت لها عشرات المجلدات ، ولو اعترض معارض على ما يذكرون لقالوا له:

أونكر الكرامات وأخبارها ثابتة بأدلة لا يرقى إليها شك؟!.

ونحب في البداية أن يطمئن إخواننا المجاهدون بأننا نؤمن بالكرامات التي يجريها سبحانه وتعالى على أيدي أوليائه المتقيين ، ونحذر من أهل الاعتزال ومن نحوهم من أصحاب المدرسة العقلية الذين ينكرون الكرامات ويؤولون المعجزات أو ينكرونها.. ولكن المشكلة عندنا تتعلق بالذين يخبرون عن هذه الكرامات هل هم صادقون؟!.

والذي نراه أن بين المجاهدين كثيراً من الخرافيين وهؤلاء لا نشق بهم ولا برواياتهم ، نعلم أنه يختلقون مثل هذه القصص وينسبونها لأنفسهم أو لشيوخهم ، ومن جهة أخرى فليس كل من تجاوز حدود أفغانستان مع باكستان أصبح مجاهداً ، ومن جهة ثالثة فأولياء الله لا يتفاخرون في الحديث عن هذه الكرامات بل يخجلون إذا تناقل الناس أخبارهم الطيبة ويخشون من الفتنة ، ومن جهة رابعة كيف تكون كرامات الأفغان مئات أضعاف معجزات الأنبياء عليهم السلام ، وكرامات الصحابة - رضوان الله عليهم - .

مرة أخرى نقول: بين المجاهدين الأفغان كثير من الصالحين قد يجري الله سبحانه وتعالى على أيديهم بعض الكرامات.

سابعاً - الخاتمة:

أيها الإخوة الأحبة: إن ما نشعر به من قلق على مستقبل مسيرتكم في ميدان الجهاد وما نكتبه لكم من حب عميق أو جب علينا أن نتقدم إليكم بهذه النصائح والخواطر ، فإن أصينا بفضل الله ومنته ، وإن أخطأنا فمن أنفسنا.

واعذرنا إن كنا قد أخطأنا في التعبير ، أو تجاوزنا الحدود ، فما أردنا إلا الخير ، ولا يجوز لأحد أن ينصب نفسه أستاذًا عليكم أو وصيًا على شؤونكم.. فأنتم المجاهدون الذين تبذلون أرواحكم رخيصة في سبيل الله ، وتصبرون على شظف العيش ، ونعلم أن بعضكم يقتات أوراق الأشجار من شدة الجوع ، ويحق لكم إن شاء الله تقولوا للأتقياء:

من كان يخضب خده بدموعه فنحورنا بدمائنا تتخضب

ريح العبير لكم ونحن عبيرنا رهج السنابك والغبار الأطيب

يا أخوتنا الأحبة: لا تخسوا كيد الأمريكان والسوفيات ، فإنهم لن يصنعوا شيئاً إذا أراد الله لكم النصر والتمكين ، قال تعالى: ((إِن يَنْصُرُكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَحْذِلُكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)). (١٨).

فتوكلا على الله وحده لا شريك له ورموا صفوكم ، وكونوا من الذين وصفهم الله سبحانه وتعالى في قوله:

((الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشُوْهُمْ فَرَأَدُهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)). (١٩).

اللهم منزل الكتاب ، وجري السحاب ، اهزم أعداءك الشيوخين في أفغانستان ، اللهم إنا نجعلك في نحورهم ، ونعود بك من شرورهم ، وانصر اللهم عبادك المجاهدين في سيلك.. اللهم انصرهم ووحد صفتهم ولا تجعل بأسهم بينهم إنك سميع الدعاء.

الهؤامش:

- ١ - رواه أبو داود بإسناد صحيح.
- ٢ - رغم ذلك كله فلقد كان صاحب موهب، وكان ناجحاً في تأدية الدور الذي تم اختياره من أجله.
- ٣ - رواه مسلم في صحيحه عن أبي رقية تميم بن أوس الداري - رضي الله عنه -.
- ٤ - متفق عليه.
- ٥ - سورة محمد ، الآية: ٧,
- ٦ - سورة آل عمران ، الآية: ١٢٦,
- ٧ - سورة الأنفال ، الآية: ١٠ ,
- ٨ - سورة الكهف ، الآية: ١١٠ ,
- ٩ - متفق عليه.
- ١٠ - متفق عليه.
- ١١ - سورة الأنعام ، الآية: ١٥٩,

- ١٢ - سورة الأنفال ، الآية: ٤٥ ، ٤٦
- ١٣ - سورة آل عمران ، الآية: ١٣٧ . والآية وردت في صدر الحديث عن نتائج غزوة أحد.
- ١٤ - في ظلال القرآن ، المجلد الأول / ٤٥٦ ، دار الشروق ، تفسير الآية ١٣٨ من سورة آل عمران.
- ١٥ - الدعاة الذين يرفضون الانقياد لغير الله سبحانه وتعالى وقد اعتادت الدوائر الاستعمارية إطلاق هذه التسمية على كل جماعة متميزة مستقلة.
- ١٦ - من شاء مزيداً من التفاصيل فليراجع كتاب (المسلمون وراء الستار الحديدي) مؤلفه عيسى يوسف ألب تكين.
- ١٧ - عن صحيفة (دير شبيغل) الألمانية تاريخ ١٩٨٦/٥/١٢
- ١٨ - سورة آل عمران ، الآية: ١٦٠
- ١٩ - سورة آل عمران ، الآية: ١٧٣ .

مجاعة فأين ابن الخطاب؟!

التحرير

ذكرت مصادر في برامج الإغاثة الدولية أن عدد الذين يواجهون خطر الموت بسبب الجوع وسوء التغذية في السودان قد ارتفع هذا العام إلى حوالي مليونين عن العام الماضي ليصل إلى (١١٥) ملايين شخص.

وعزت المصادر الأسباب إلى اتساع رقعة المناطق المنكوبة والتي وصلت إلى مرحلة الجفاف في جنوب السودان.

وتعاني بعثات الإغاثة من الأمم المتحدة ومنظمات دولية أخرى من صعوبات ومشاكل تحول دون إيصال قوافل الإغاثة التابعة لها والتي تحمل المواد الغذائية الالزمة لسكان المناطق المنكوبة بسبب الحرب الأهلية الدائرة في الأقاليم السودانية الجنوبية بالإضافة

إلى التطورات التي حدثت في أوغندا مؤخراً والتي أحدثت شللاً في حركة المواصلات من وإلى هذه الأقاليم.

وقد عزلت هذه الظروف أقاليم الاستوائية وأعلى النيل وبحر الغزال عن العالم الخارجي مما يهدد بارتفاع عدد ضحايا الجفاف في هذه الأقاليم التي يصل عدد سكانها إلى مليوني نسمة (١).

ونشرت وكالة الأنباء السودانية في ١٠/٩/١٩٨٥ الخبر الآتي: (عشر فريق من سائقي الشاحنات على ٤٣ جثة لسودانيين يبدو أنهم ضلوا الطريق في الصحراء الكبرى أثناء رحلة قصدوا فيها ليبيا بحثاً عن عمل.

ونسبت وكالة الأنباء السودانية إلى مصادر الشرطة في بلدة الفاشر الغربية قولها: إن السودانيين هلكوا من الجوع والعطش.

وقالت مصادر الشرطة أيضاً: إن سائق الشاحنات عثروا على الجثث متتاثرة في الصحراء على بعد (٧١٢) كيلو متراً شمال غرب الخرطوم.

ولم توضح الوكالة السودانية ما إذا كانت الجثث لجماعة واحدة ضلت الطريق أو لعدة جماعات أو أفراد سلكوا الطريق بحثاً عن العمل ، لكنها ذكرت أن وثائق السفر والجوازات التي كانت بحوزتهم تظهر أن غالبيتهم قدمت من إقليم كردفان جنوب غربي السودان وهو من الأقاليم التي عانت أكثر من غيرها بسبب موجة الجفاف والقحط الحالية).

وقفت مشدوهاً أمام هذين الخبرين وكيف لا أكون مشدوهاً وينتابني الفزع والقلق وربع سكان السودان المسلم مهددون بالموت جوعاً؟!.

بل والله رحت أتصور منظر ٤٣ جثة متتاثرة في الصحراء ... متى بدأوا رحلتهم ، وماذا كانوا يحملون من زاد وماذا أفعل لو كان أخي أو ابني واحداً منهم؟!.

كنت أذكراهم إذا جلست مع أفراد عائلتي على مائدة الطعام ، وأذكراهم إذا أويت إلى فراشي... وكتت أتساءل:

ماذا قدم المسلمون في كل مكان لإخوانهم في السودان ... بل ماذا قدم الزعماء والأغنياء السودانيون لإخوانهم؟!.

أما الزعماء السودانيون فأمرهم يدعو إلى العجب ، وسوف أذكر فيما يلي نماذج من مواقفهم المؤسفة.

كان كبيرهم السابق - الذي زعم أنه أمير المؤمنين - من أهم أسباب المجاعة. لقد نهب وسلب وأظهر في الأرض الفساد ، ويعيش الآن في رومانيا حياة المترفين المترهلين ، وله في بنوك أوروبا عشرات الملايين من الدولارات... وكذلك كان من حوله يسلبون وينهبون دون حياء ولا خجل ، بل و كانوا يضعون معظم ما يقدم للجياع في السودان من مساعدات في جيوبهم أو في أرصدة في بنوك أوروبا... وقد تاجروا ، عليهم من الله ما يستحقون ، حتى بنقل يهود (الفلاشا) إلى فلسطين المحتلة.

- أما الأحزاب السودانية التي يربو عددها على الثلاثين فمشغولون عن المجاعة بالانتخابات وتبادل الاتهامات والشتائم... وتنقل الصحف العربية والعالمية أخبار الانتخابات بشيء من المراارة والسخرية ، ويؤكد المطلعون بأن مجموع ما أنفقته هذه الأحزاب في المعركة الانتخابية يبلغ بضعة مئات الملايين من الدولارات ، ولمعظم هذه الأحزاب ممولون من خارج السودان ، ولهؤلاء الممولين أهداف لا تبشر بخير.

- وفي جنوب السودان حرب شرسة تهدد وحدة السودان ، وتنذر بخطر عظيم ، وتمول الحبشه ، ومن ورائها الاتحاد السوفيaticي الصليبيين الذي يقودهم (قرنق) في جنوب السودان... وينفقون على هذه الحرب مئات الملايين من الدولارات.

وقصارى القول: فإن الأموال التي سرقت ، والأموال التي أهدرت في المعركة الانتخابية ، والأموال التي تنفق على القتال في جنوب السودان... هذه الأموال وحدها كافية لحل مشكلة المجاعة... ولو كان زعماء هذه الأحزاب يعيشون مشكلة المجاعة لجمعوا هذه الأموال وشكلوا حكومة هدفها إنقاذ ربع السودان من موت يهددهم.

أما غير السودانيين ، فمما لا شك فيه أن كثيراً من المحسنين في البلدان العربية أنفقوا مما يحبون من المال وأرسلوا الوفود التي قدمت المساعدات إلى هذه البلدان المنكوبة ، ولكن حاجة المنكوبين أكبر من طاقة جمعيات البر الإسلامية.. فأين الذين يخسرون الملايين من الاسترليني في ليلة واحدة على موائد القمار؟!. وأين الذين يشعرون بالحروب هنا وهناك ويتحدثون عن تصدير ثورتهم ... ماذا عليهم لو صدرروا الخير والبر والإحسان؟!.

وهذه الدول التي تمول الأحزاب من أجل السيطرة على السودان ماذا يضيئها لو دفعت هذه الأموال للمواطنين الجياع في السودان؟!.

لقد بات من المؤكد أن الاتحاد السوفياتي يمول الحزب الشيوعي كما يمول بشكل غير مباشر التمرد في جنوب السودان ، كما بات من المؤكد أن الولايات المتحدة الأمريكية تمول وتراهن على حزب آخر ، وهي التي كانت وراء مصالحة (نميري) مع زعيم هذا الحزب ... وهناك أنظمة تمول أحزاباً أخرى ، ولا نعتقد أن نتائج المعركة الانتخابية سوف تكون في مصلحة السودان ، مهما كانت هذه النتائج . والجماعة ليست قاصرة على السودان ..

ذكرت دراسة أعدتها البنك الدولي تحت عنوان: (الفقر والجوع ... مشكلات وخيارات تتعلق بالأمن الغذائي في الدول النامية).

ذكرت هذه الدراسة أن هناك أكثر من سبعمائة مليون شخص في العالم لا يجدون ما يقوم بأودهم ، ومعظمهم يعانون من سوء التغذية ، ومعظم هؤلاء المنكوبين يعيشون في جنوب آسيا والمنطقة الصحراوية من أفريقيا... وهذا يعني أن نسبة كبيرة منهم من المسلمين.

وجاء في هذه الدراسة أن العالم مليء بالطعام ، ومع ذلك فالقمح يفسد في مستودعات الولايات المتحدة ولا توزعه هذه الدولة المجرمة على الجياع البائسين في العالم وكأنها - أي الولايات المتحدة - أخذت على عاتقها هلاك العالم ودماره إن لم يكن بالأسلحة الفتاكه ففي منع قمحها وغيره من الأغذية عن الفقراء الذين يتضورون جوعاً.

والاتحاد السوفيatici ليس أحسن حالاً من الولايات المتحدة ونحن لا نطالب بمساعدة المحتاجين البائسين ، وإنما نطالبه أن يكف عن مساعدة المتمردين الصليبيين في جنوب السودان ونطالبه السماح لجمعيات البر والخدمات الاجتماعية بالقيام بدورها في الحبشه وإتيريا دون قيود من النظام الحاكم في أديس أبابا.

لقد فشل العالم من أدناه إلى أقصاه في وضع الحلول لمشكلة المجاعة ، وهذا نحن نسمع ونقرأ أخبار عدد كبير من الناس يموتون بسبب كثرة ما يأكلون وعدد كبير يموتون لأنهم لا يجدون ما يسدون به رمقهم!!.

ألا ما أحوج عالمنا المعاصر إلى رجل كعمر بن الخطاب - رضي الله عنه وأرضاه - كان يأكل مع الناس في عام الرماده [وهو عام أصاب الناس فيه قحط ومحصلة] فإن جاعوا ظل جائعاً معهم ، وكان عليه رضوان الله لا يتميز عن عامة رعيته ب الطعام ولا بشراب ولا بلباس ، وسارع إلى حمل الدقيق على ظهره عندما رأى امرأة وأولادها يسهرون من شدة الجوع ، وراح - رضي الله عنه - يشعل النار ، وينفخ تحت القدر ، وما نام أمير المؤمنين حتى شبع الصبية وناموا.

وقد أجاد حافظ إبراهيم عندما نظم هذه القصة في الأبيات التالية:

ومن رأه أمام القدر منبطحاً والنار تأخذ منه وهو يذكيرها
وقد تخلل في أثناء لحيته منها الدخان وفوه غاب في فيها
رأى هناك أمير المؤمنين على حال تروع لعمر الله رائتها
يستقبل النار خوف النار في غده والعين من خشية سالت ماقتها
إن جاع في شدة قوم شركتهم في الجوع أو تنجلى عنه غواصتها
جوع الخليفة والدنيا بقبضته في الزهد منزلة سبحان مولتها
فمن يساوي أبا حفص وسيرته أو من يحاول للفاروق تشبيهاً
لقد بدأ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه وأرضاه - بنفسه ثم بأهله ، وهكذا يكون التغيير .

أما الذين يقعنون خلف السجائر والستور ويتبعون على أرائك وثيرة ويتقلبون في رغد من العيش ، ويمليون الملايين خارج بلادهم. هؤلاء لن يصنعوا شيئاً للجياع والبائسين لأنهم يقولون ما لا يفعلون ، ويختادعون الله والذين آمنوا.

قال تعالى:

((إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ)).

والإسلام الذي صنع عمر بن الخطاب لا يزال كما أنزله الله سبحانه وتعالى نقياً طاهراً ، وهو الذي صنع عمر بن عبد العزيز ، وعماد الدين زنكي ، ونور الدين الشهيد ، وصلاح الدين الأيوبي ، وغيرهم وغيرهم.

كيف يحارب الإسلام من الداخل

التحرير

أني ألتفت إلى بلد من بلدان العالم الإسلامي وجدت جهات كثيرة تحارب الإسلام، وتحاول - بكل ما تملك من طاقات ووسائل - هدم أركانه وزعزعة بنائه. ومن أشد هذه العداوات وأكثرها كيداً ودهائاً وخيثاً تحالف أعداء الإسلام مع المنافقين الذين يقولون ما لا يفعلون ويحسبون كل صيحة عليهم.

ومن هؤلاء المنافقين كثير من زعماء الصوفية في عصرنا الحديث وسوف نذكر في هذه الأسطر القليلة أبرز سماتهم وأهم تناقضاتهم.

- يلبسون لبوس الرهبان ويتظاهرؤن بالزهد والورع والتقوى ويزعمون أن الدنيا لا تساوي عندهم جناح بعوضة ، ويتباكون من خشية الله تعالى.

- يكرهون العلم والعلماء وينفرون من أمهات الكتب الإسلامية ويناصبون الفقهاء والمحدثين العداوة والبغضاء ، ويسفهون كل من يطالعهم بذكر الأدلة الشرعية.

– يقدسون شيوخهم فيقبلون أيديهم وأرجلهم ويسجدون أمامهم ولا يردون لهم أمراً، ويرون أن هؤلاء الشيوخ يعلمون الغيب ، وكل ما يصدر عنهم من قول أو فعل لا يجوز مخالفته أو التشكيك فيه.

– هم وحدهم الذين يفهمون القرآن والحديث والفقه ؛ لأنهم تلقوا هذه العلوم عن شيوخهم ، وشيوخهم تلقوا هذه العلوم عن الأوتاد والأبدال والأقطاب الذين يشتركون في تصريف أمر هذا الكون ، ويعلمون الباطن في حين لا يفهم علماء التفسير والحديث من هذه العلوم إلا الظاهر ، والظاهر لا يغني من الحق شيئاً.

– يحبون الفلسفة ، ويعشقون علماء الكلام من الملاحدة في القديم والحديث ؛ لأنهم يتفقون معهم في كثير من أفكارهم الخطيرة كوحدة الوجود والحلول. ولست في صدد الحديث في هذا التعليق عن أفكار غلاة الصوفية وتصوراتهم وأخلاقهم، فلقد سبقني إلى هذا الفضل علماء كبار صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وتركوا لنا أسفاراً نفيسة بينوا فيها فساد اعتقاد غلاة الصوفية وكشفوا أسرارهم ، وهتكوا أستارهم.

وإن الذي دفعني إلى كتابة هذه الأسطر ما أراه من حرص كثير من أجهزة الإعلام – التي تحارب الإسلام والمسلمين – على تلميع وجوه قادة غلاة الصوفية وإحاطتهم بهالة من التقديس والتعظيم:

فأنت تقرأ في صحيفة علمانية أخبار أحد زعماء الصوفية وتصريحاته وموافقه المزعومة في خدمة الإسلام والمسلمين وتشاهد صورة الشيخ إلى جانب التصريح الذي أدلى به... وفضلاً عن هذا وذاك تحتل الصورة والتصريح أهم مكان في الصحيفة ، وتبثث عمما وراء الأسطر فتعلم بأن الشيخ المزعوم يمد الصحيفة بأرقام خيالية من المساعدات المادية ، ولا ندري من أين يأتي بها؟!.

وفي صحيفة أخرى أو جهاز إعلام آخر نلاحظ أن الاختيار وقع على هذا الرعيم الصوفي ليكون عوناً للعلمانيين في معركتهم مع دعاة الإسلام ، ولهذا يتبعوا الشيخ وتلامذته أعلى المناصب وأرفع الدرجات ، وتغدق عليهم الأموال وتقدم لهم المنح والأعطيات... وبعد حين من الزمن يصبح الشيخ وأعوانه من كبار أصحاب رؤوس الأموال ، ويملكون المزارع والمتجار والعقارات ، ويعيشون حياة السلاطين والأباطرة ، وهم الذين يتحدثون في دروسهم ومواعظهم عن الرهد والورع وخشونة العيش.

ومن المؤسف أن هؤلاء الذين تم اختيارهم لأعلى المناصب الدينية ليسوا من العلماء ، بل إنهم من أجهل الناس فيفهم كتاب الله جل وعلا ، وفي معرفة الحديث الصحيح من الضعيف أو الموضوع... ولا غرابة في ذلك فأعداء الإسلام يخشون من العلماء العاملين ويحرصون على شراء ذمم الجهلة المتقاعسين الذين يفتون عن غير علم فيصلون ويُضلّون.

وقد سُئل هؤلاء الجهلة الصوفيون عن أسباب تعاونهم مع أعداء الإسلام ولماذا يبطش الملاحدة بالدعاة إلى الله ويوادون الصوفيين ، فأجابوا:

نحن لا نتدخل بالسياسة ، وننود إلى الناس جميعاً ، ونخاطبهم بالحكمة والموعظة الحسنة.

وقد كذبوا في هذه وتلك ، فهم ينافقون لأعداء الإسلام ، ويذلّلون لهم في حين يقفون من العلماء والمحدثين موقفاً آخر ليس فيه مودة ولا ليةنة.

وفي معركة دعاة الإسلام مع الملاحدة والطغاة ، انحاز غلاة الصوفية إلى جانب الملاحدة من الشيوعيين والرأسماليين والعلمانيين ، ولو أنهم وقفوا على الحياد لاتمسنا لهم الأعذار وسكتنا عنهم.. لكنهم دخلوا السياسة من أوسع أبوابها ، وشنوا حملة ضد الدعاة إلى الله ، وباعوا أنفسهم للشيطان لقاء دريمات معدودات ، كما باعوا آخرتهم بدنياهم ، وإذا هلك شيطانهم الأول استبدلواه بشيطان آخر قد تتناقض مواقفه وأقواله مع سلفه ، ولا يخجلون من تغيير المواقف والولاءات.

إن قادة الفرق الصوفية يفسدون داخل الصف الإسلامي، ولا يصلحون، ويعرف أعداء الإسلام كيف يتعاملون معهم ، وكيف يستخدمونهم في حربهم ضد الإسلام والمسلمين، فبالأمس القريب استخدمهم الانكليز والفرنسيون عندما استعمروا معظم بلدان العالم الإسلامي ، وانتسب بعض زعمائهم إلى المحافل الماسونية ، وفي مقدمتهم ذلك المخرف الذي أمر بحرق كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ان القيم كما أمر بنشر كتب ابن عربي وابن الفارض وغيرهما من أساطين الصوفية.

إن شباب الإسلام مدعون إلى رصد هذه الظاهرة وسبل غورها وتحذير الناس من أخطارها.

((رَبَّنَا لَا تُنْزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)).

أدب وتاريخ

موقع الأدب

في الثقافة الإسلامية المعاصرة

منصور الأحمد

لقد كان الأدب ، وما زال ، المرأة التي تعكس تفكير المجتمع ، وتشير إلى مكامن الضعف والقوة في ثقافته وحضارته ، وكذلك كان الأدب هو المبشر بإرهاصات النهضة لأي شعب من الشعوب أو أمة من الأمم.

ولقد تباهت الشعوب - على ضوء تقدم الدراسات في مختلف المجالات - لما للأدب من أثر فعال في صياغة وتوجيه الأفكار ، وإحلال قيم وأفكار جديدة محل أخرى قديمة، فاستخدم الأدب من أجل ذلك أكبر استخدام ، وتوسل أصحاب الأفكار والعقائد به، للوصول إلى عقول الجماهير من الناس من أقرب طريق وأسهله.

وإذا ألقينا نظرة عجلى على تاريخنا الأدبي ، وجدنا أن الإسلام يوم جاء كان للعرب حياتهم الاجتماعية الخاصة ، وكانت لهم قيمهم الأدبية التي ترتكز على الفخر بالأمجاد

الشخصية أو القبلية ، وإن كانت مجانية للحق والعدل ، وعلى الإشادة بعض العادات المرذولة كشرب الخمر ولعب الميسر ، فلما دخل العرب في الدين الجديد ؛ حدث في حياتهم وأدبهم انقلاب شامل ، وشعروا برحابة العالم، وبعد الأهداف التي قدمها الإسلام إليهم ، وأدركوا أنهم أمناء على تقديم هذه الرسالة للناس كافة ، وأنهم خرجوا من حزيرتهم ليحرروا الناس جميعاً من العبودية لغير الله ، ولزييلوا العراقيل - أيا كانت - من طريق البشرية حتى تحس ببشريتها وتشعر بتكريم الله لها حين خلقها :

((لَيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَ عَنْ بَيِّنَةٍ)) [الأنفال: ٤٢].

ولسنا نريد من إشارتنا إلى بعض عادات العرب التي ذمها الإسلام ، كاعتداء القوي على الضعيف ، وشرب الخمر ، ووأد البنات ، أن نجردهم من كل فضيلة ، ونقع في ما وقع فيه الشعوبيون الذين دفعهم كرههم لعنصر العربي - لحاجات في نفوسهم - أن نسبوا إليه كل مثابة، وجردوه من كل منقبة، بل إننا نرى أن الله ادخر فضله لهذه الأمة بأن جعلها أمينة على الرسالة الخاتمة ، عندما لم يكن غيرها من الأمم أهلاً لذلك.

وهكذا ، اندفع العرب بالإسلام، وقدموا للعالم قيمةً جديدة خالدة، تمثلت في قيم العدل ، والحرية، والسماعة، والبعد عن التكلف، والتواضع، الإنصاف من أنفسهم، وحملوا معهم البيان الخالد الذي حفظ لهم لغتهم ووحدتهم ، وأمدتهم بعناصر الحياة لهذه القيم العظيمة، فتأثر أدبهم من شعر ونشر وخطابة، بهذا البيان، واستمد منه عناصر العظمة والخلود المتمثلة بنصاعة التعبير وقوه التأثير.

وإن المتأمل يانتاج مشاهير الأدب العربي في عصوره الزاهرة من شعراء وكتاب وخطباء ، يتلمس بكل وضوح أثر القرآن الكريم وأثر الإسلام في أدبهم.

إن الأدب شأنه شأن الأمم ، يقوى ويزدهر إذا قويت ، ويضعف ويحمد إذا انحطت وضعف ، وذلك لأنه انعكاس لذاكرة الأمة ينشط بنشاطها ويتراجع بتراجعها.

وقد مرت الأمة الإسلامية - في تاريخها الطويل - بفترات ضعف خضعت فيها للكثير من المؤثرات الغربية عنها ، وانعكس ذلك على أدبها ، وكما كانت هذه الأمة بما تدخر في

كيانها من رصيد ، وما تحمله من خميرة كامنة في ذاتها ، تصد اندفاع الهجمات الخارجية ، وتخالص من عدوان المغirين ، وسلط الطغاة والطامعين ، فكذلك كان أدبها صورة معبرة عن آمالها وأهدافها .

وفي عصر النهضة الأدبية الحديثة ، وجدنا أن الذين قاموا على أكتافهم هذه النهضة قد اخذوا المصادر الإسلامية الأصيلة منطلقًا لهم ، فجاء أدبهم امتدادًا للعصور الظاهرة للأدب ، يبشر بعودة الأمة إلى تراثها وأصالتها بعد أن ابتعدت عنها وجمدت نتيجة مؤثرات كثيرة لا مجال لبسطها .

ولكن سيطرة المستعمرات الغربيين ، وما أعقب ذلك من محاولاتهم الدؤوبة للقضاء على عناصر القوة في كيان هذه الأمة والمتمثل في عقيدتها الإسلامية ، جعلهم يستتبون عناصر تدين لهم بالولاء ، وترتبط مصالحها بمصالحهم ، بعيدًا عن آمال أمتها وتاريخها فدرس هؤلاء ثقافة الغرب الغازي ، وأورثهم ذلك احتقار تاريخهم ، بالإضافة إلى كثير من نصارى العرب الذين يرتبطون مع هذا الغازي برباط العقيدة ، فوجدوا أن مما يقوى سيطرتهم على المسلمين أن يعملا على إضعاف الثقافة الإسلامية .

وهكذا لم يلبث جحافل المستعمرات أن تجلو عن أكثر ديار المسلمين ، ولكنها لم تخرج إلا بعد أن اتمننت على تطبيق خططها وأفكارها هؤلاء الذين رعتهم وربتهم وربطت مشيرها بهم ، فأحلوا - بالقوة - أفكار الغرب وتقاليده وثقافته محل الثقافة الإسلامية ، فأهملوا النقاط المضيئة من التاريخ الإسلامي ، وضخموا الجوانب السلبية منه ، وشوهوا حقائقه ، ونسفوا التشريعات الإسلامية وأحلوا محلها قوانين الغرب الكافر وتشريعاته الوثنية ، وفصلوا الأدب عن العقيدة ، وابتعدوا به عن الأخلاق تحت شعارات براقة حيناً كمقولة الفن للفن .

وتحت أمثال هذه الذريعة وجدنا أن الذين أوكل إليهم وضع مناهج الأدب ، وأغيرت لهم منابر الكتابة يتعمدون طمسً كثیر من الآثار الأدبية الإسلامية ، ويتجاهلون كثیراً من الأسماء التي كانت تصدر في أدبها عن مبدئية إسلامية واضحة ، في الوقت الذي يبرزون

فيه كل ما شد من الأدب قديماً وحديثاً ، فيلمعون أدب الشهوة والجنس باسم (الواقعية) ويشيدون بالتمرد والشذوذ عن العقائد والأخلاق باسم التطور والتجديد ، وإذا ما نبغ شاعر أو كاتب يسب عقيدة الأمة ويتطاول على مقدساتها ويتبرأ من تاريخها ويقذف قيمها وتراثها ، وينسلخ عن أهدافها ، فهو عندهم الذي تفتح له المغاليق ، ويحوز قصب السبق فتفتح له صدور الصحف والمجلات ، وتنسابق فيما بينها للظفر منه بالتحليلات والمقابلات ، وتنقل تقطعته وحذلقاته موجات الأثير عبر الإذاعات.

وهكذا أعقب خروج الاستعمار العسكري من البلاد الإسلامية انتكاسة في أدب هذه الأقطار ، وذوبان في ثقافة المستعمر وقيمه وتقاليده ، وشيوخ للبدع الأدبية التي تختبط فيها الحضارة الحديثة مثل: (الوجودية) و(الواقعية)...

وفي هذا الوقت الذي تردد فيه أوضاعنا إلى ما نلاحظه من تفرق وتمزق ، وتععددت فيه مشاربنا من غرب ومن شرق ، وكدنا ننسى ما يربطنا بتراثنا وعقيدتنا ، مطلوب من المسلمين - وقد لاحت بوادر رجوعهم إلى دينهم - أن يحلوا أدبهم ما يليق به من مكانه وأن يسدوا الفراغ الهائل الذي نتج عن شيوخ كل ما هو غير إسلامي من صنوف التعبير والكتابة ومخاطبة الجماهير وذلك لأن الأدب الذي يعبر عن ذاتية هذه الجماهير أدب فقير مجدب. وأن الأدب المجرد من العقيدة التي احتللت بدم معتنقها ، وتخللت ما بين مشاعرهم وعواطفهم لا يجد له استجابة ، ولا يحرك أحداً ، بل هو أدب هجين لا تكتب له الحياة.

لقد آن الأوان أن يؤخذ زمام المبادرة من المفسدين في الأرض ، ويطرح للناس أدب يعبر عن تطلعات الشخصية الإسلامية ، ويشبع شوقها إلى نماذج نظيفة من الأدب الذي يقودها في الأوقات العصيبة.

إننا نطرح - عبر هذه المجلة - الدعوة لكل من يأنس من نفسه القدرة على أن يضيف شيئاً في مجال الإبداع الأدبي ، وسوف نعمل - بإذن الله - على تشجيع كل المواهب الشابة التي تُزوى عنها صفحات المجلات والصحف العلمانية ، مرحبين بكل الأنواع

الأدبية من شعر ونثر وقصة ، رائدنا في ذلك أن يكون هؤلاء الكتاب كما وصفهم الشيخ أبو الحسن الندوبي في كتابه: (مختارات من أدب العرب):

(كتاباً مؤمنين.. ملكتهم فكرة أو عقيدة ، أو يكتبون لأنفسهم أو إجابة لنداء ضميرهم وعقيلتهم ، مندفعين منبعين ، فتشمل مواهبهم ويفيض خاطرهم ، ويتحرق قلوبهم ، فتتزال عليهم المعاني ، وتطاوعهم الألفاظ وتؤثر كتابتهم في نفوس قرائهما ، لأنها خرجت من قبل فلا تستقر إلا في قلب).

البلاغة والبيان

التحرير

قال علي بن عيسى الرماني :

البلاغة ما حط التكليف عنه ، وبنى على التبيين ، وكانت الفائدة أغلب عليه من القافية بأن جمع مع ذلك سهولة المخرج، مع قرب المتناول، وعدوبة اللفظ ، ومع رشاقة المعنى، وأن يكون حسن الابتداء كحسن الانتهاء، وحسن الوصول كحسن القطع، في المعنى والسمع وكانت كل كلمة قد وقعت في حقها ، وإلى جنب اختتها ، حتى لا يقال: لو كان كذا في موضع كذا لكان أولى! وحتى لا يكون فيه لفظ مختلف ، ولا معنى مستكره ، ثم أليس بهاء الحكمة، ونور المعرفة، وشرف المعنى، وجزالة اللفظ، وكانت حلاوته في الصدر، وجلالته في النفس، تفتق الفهم، وتنشر دقائق الحكم ، وكان ظاهر النفع ، شريف القصد ، معتدل الوزن ، جميل المذهب ، كريم المطلب ، فصيحاً في معناه، بينماً في فحواه، وكلٌ هذه الشروط قد حواها القرآن ، ولذلك عجز عن معارضته جميع الأئم.

ووصف العتايي رجلاً بليغاً فقال:

كان يظهر ما غمض من الحجة، ويصور الباطل في صورة الحق، ويفهمك الحاجة من غير إعادة ولا استعana.

قيل له : وما الاستعانة؟

قال : يقول عند مقاطع كلامه :

يا هناء ، واسمع ، وفهمت ! وما أشبه ذلك . وهذا من أمارات العجز ، ودلائل الحصر !
وإنما ينقطع عليه كلامه ، فيحاول وصله بهذا فيكون أشد لانقطاعه .

وقال الجاحظ :

البيان اسم لكل شيء كشف لك عن قناع المعنى ، وهتك لك الحجب دون الضمير ، حتى يقضى السامع إلى حقيقته ، وبهجم على محصوله ، كائناً ما كان ذلك البيان ، ومن أي جنس كان ذلك الدليل ؛ لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام ؛ فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع .

زهر الآداب : ١٠٠/١٠٦/١٠٧ .

مفهوم الجاهلية في الشعر الجاهلي

بقلم: محمد الناصر

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعود بالله من شرور أنفسنا وسبيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادي له ، ونصلى ونسلم على رسول الله -
صلى الله عليه وسلم - وبعد :

فإن الشعر الجاهلي... شعر قديم متصل الحلقات يصور حياة العرب قبل الإسلام ، فهو سجل العواطف والمفاحر ، سجل العصبيات والحروب ، فيه أيام العرب ووقائعهم، وتدوين لأصولهم وأنسابهم ، يقول أبو هلال العسكري (١) :

(لا نعرف أنساب العرب وتاريخها وأيامها ووقائعها إلا من جملة أشعارهم فالشعر ديوان العرب وخزانة حكمتها).

وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -:

(كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه) (٢).

وللشعر منزلة عظيمة عند العرب وللشاعر مكانة لا تضاهى (٣) ، فإذا نبغ في القبيلة شاعر هناتها القبائل، وصنعت الأطعمة، وأعلنت الأفراح لأنها حماية لأعراضهم وتخليد لما فيهم، وإشادة بذكراهم ، وكانوا لا يهنسون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبع أو فرس تنتج (٤).

وما تقاد القصيدة تلقى حتى تسير بها الرواية ، وتنشدتها المجالس ، قال المسيب بن علس (٥) :

فلاهدين مع الرياح قصيدة مني مغلولة إلى القعقاع
ترد المياه فما تزال غريبة في القوم بين تمثل وسماع
فقصيده تنشر بين القبائل ويرددوها الناس مستمعين لها ومتمثلين بأبياتها .
والأمثلة كثيرة لشعراء حموا أعراض قبائلهم ، ولشعراء تشفعوا لقبائلهم ، أو لأفراد منها
فشفعوا ، وشعراء رفعوا الوضع ووضعوا الرفيع ...
فالأشعى يقدم مكة ويمدح المحلق ويذكر كرمه وشرفه وحسن صفاته بعد فقر وخمول
ذكر... ثم تحدث عن بناته فقال:

أرقت وما هذا السهاد المؤرق وما بي من سقم وما بي معشق
نفي الذيم عن آل المحلق جفنة كجایة السیح العراقي تفھق
فما إن أتم قصيده حتى انسل الناس إلى المحلق يهنسونه ، والأشراف من كل قبيلة
يخطبون بناته العوانس فلم تمس منهن واحدة إلا عصمة رجل أفضل من أيها ألف ضعف
(٦).

وكان بنو أنف الناقة يأنفون من هذا اللقب حتى إذا مدحهم الحطيبة بقوله:
قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا
صار اسمهم شرفاً لهم .

ولقد كانت القبيلة تحرض على رواية شعرها فتعلمت صغارها الشعر وحفظ أشعار القبيلة خاصة ، كما كانت تفعل تغلب في تحفيظ أبنائها معلقة عمرو بن كلثوم ، فهجاها شاعر بكر بقوله:

ألهي بني تغلب عن كل مكرمة يرونها أبداً مذ كان أولهم
قصيدة قالها عمرو بن كلثوم يا للرجال لشعر غير مسلوم (٧)

وفي الإسلام يأذن الرسول عليه الصلاة والسلام لحسان بن ثابت أن يهجو كفار قريش، وقال: «اذهب إلى أبي بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ثم اهجهم وجربيل معك»(٨).

وفي السيرة النبوية أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- قال لحسان - رضي الله عنه -: "«لشعرك أشد عليهم من وقع النيل»" ، مما يبين لنا أهمية الشعر في الذب عن الدعوة وأصحابها.

وبعد هذه الشواهد ، والأمثلة في مصادر الشعر كثيرة ، يتبيّن لنا مدى اهتمام العرب بالشعر ، فهو خير مصدر لتصوير حياتهم ، وهو ديوان العرب كما عرّفنا ، ولذلك يمكننا استخراج مفهوم الحياة الجاهلية، في مختلف مظاهرها من هذا الشعر، ثم من ردود القرآن الكريم على الانحراف حيناً لتنقيمه وإنكار السلبيات المطلقة حيناً آخر...

ولقد حاولت الرجوع إلى المصادر الموثقة للشعر الجاهلي كالمفضليات والأصميات والمعلقات وطبقات فحول الشعراة والشعراء... وغيرها لتكوين صورة واضحة لما كان عليه القوم في جاهليتهم من مصادر الشعر أولاً وكتب السيرة والتاريخ التي وصفت لنا حياة أولئك القوم الذين أنعم الله عليهم بنور الإسلام.

وسترى بعونه تعالى أن كثيراً من مظاهر حياتنا الحديثة وما فيها من عادات وتقالييد ما هي إلا امتداد لمفهوم الجاهلية العربية... جاهلية ما قبل الإسلام...

تحديد العصر الجاهلي:

قد يتبدّل إلى الذهن أن العصر الجاهلي يشمل كل ما سبق الإسلام من حقب ، ولكن البحث يظهر أن الأدب الجاهلي يعود إلى قرن ونصف قبلبعثة النبوة ، يقول الجاحظ

(٩):

(أما الشعر العربي فحدث الميلاد صغير السن ... فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام).

وما قبل هذا التاريخ قد يشوّه الغموض ولا يعطينا صورة واضحة عن الحياة الجاهلية مثل إمارة الغساسنة ثم المناذرة ، ومملكة كندة في شمالي نجد ... ومعلوماتنا عن هذه الإمارات فيما وراء القرن السادس الميلادي محدودة (١٠).

والسيد محمود شكري الألوسي يحدد فترة الجاهلية بقوله: (وهي الزمن بين الرسولين ، تطلق على زمن الكفر مطلقاً ، وعلى ما قبل الفتح وعلى ما كان بين مولد النبي والبعث) (١١).

وعلى العموم فإن الفترة الجاهلية التي تعنيها هي فترة ما قبلبعثة الرسول -عليه الصلاة والسلام- ، وهي لا تمتد أكثر من مائتي عام ، لأن ما وراء ذلك من الزمن يشوّه الغموض ولم يصل إلينا من الشعر الجاهلي قبل تلك الفترة شيء نطمئن إليه.. وفترة ما قبل الإسلام مباشرة هي الفترة التي ورثنا عنها الشعر الجاهلي... وهذا العصر هو الذي بزغت عليه شمس الإسلام ، وصور القرآن الكريم وأحداث السيرة ، كثيراً من معالمه وصراع الحق مع الباطل وزيفه.

معنى الجahلية:

أ - في كتب اللغة والأدب:

إذا رجعنا إلى معاجم اللغة نجد أن مادة: جهل تعني الجهل الذي هو خلاف العلم... وقد جهل فلان جهلاً وجهله.

وتجاهل: أي أرى من نفسه ذلك وليس به. واستجهله: عده جاهلاً واستخفه أيضاً.

والمجهلة: الأمر الذي يحملك على الجهل.

والمجهل: المفازة لا أعلام فيها (١٢).

وفي المعجم الوسيط: جهلت القدر جهلاً: اشتد غليانها ، وجهل على غيره جهالة وجهلاً: قسا وتسافه ، وجاهله: سافهه.

وفي القرآن: ((قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُرُوناً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)).

والجاهلية ما كان عليه العرب قبل الإسلام من الجهالة والضلاله.. والمجهلة: ما يحمل الإنسان على الجهل وجاء في الحديث الشريف: «الولد مدخلة مجنة مجهلة».

وهكذا (تبين أن الجاهلية ليست مشتقة من الجهل الذي هو ضد العلم ونقضه ، إنما هي مشتقة من الجهل بمعنى السفه والغضب والنزق فهي تقابل كلمة الإسلام التي تدل على الخضوع والطاعة لله عز وجل وما يطوى فيها من سلوك خلقي كريم) (١٣).

وقد تصرف إلى معنى الجهل الذي هو مقابل الحلم وليس ضد العلم إلا أن العصر الجاهلي عرف كثيراً من الناس عرفوا بالحلم والتسامح مثل قيس بن عاصم ، والأحنف بن قيس ، وغيرهما حتى ضربت بحملهما الأمثال (١٤) ..

وجاء في معلقة عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

أي لا يتتسافه أحد علينا... وقد يتضمن البيت معنى الظلم والطيش.

ب - وقد جاءت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة بهذا المعنى ، معنى الحمية والطيش والغضب، في سورة البقرة: ((قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُرُوناً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)), وفي سورة الأعراف: ((خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)).

وفي الحديث الشريف: أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - قال لأبي ذر ، وقد عير رجلاً بأمه: «إنك أمرؤ فيك جاهلية». أي فيك روح الجاهلية وطيشها تغضب فلا تحلم. والذي يظهر لنا أن الجاهلية كانت تعني الجهل لمعنى تجاوز الحق وعدم معرفته ، وتعني أيضاً الحمية حمية الجاهلية بما فيها من ثأر وطيش وحمق وسفه وكبر.

وأصبحت تطلق على العصر السابق للإسلام مباشرة ، وكل ما فيه من وثنية وأخلاق قومها الحمية واقتراف ما حرم الدين الحنيف من موبقات (١٥).

أما تعبير الجاهلية في كتاب الله فقد جاء في تفسير هذه العبارة في الآية: ((أَفَحُكْمَ
الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنْ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقَنُونَ)) (١٦).

(ينكر الله على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير الناهي عن كل شر ، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله كما كان من أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم).

وجاء في تفسير هذه الآية في ظلال القرآن لسيد قطب - رحمه الله - :

(فالجاهلية كما يصفها الله ويحدد قرآنه هي حكم البشر لأنها هي عبودية البشر للبشر والخروج من عبودية الله ورفض ألوهية الله والاعتراف في مقابل هذا الرفض بألوهية بعض البشر وبالعبودية لهم من دون الله).

ثم يقول - رحمه الله - أيضاً:

(إن الجاهلية ليست فترة من الزمان ولكنها وضع من الأوضاع هذا الوضع يوجد بالأمس ، ويجد اليوم ، ويوجد غداً ، فيأخذ صفة الجاهلية المقابلة للإسلام ، والمناقضة للإسلام... فالعبودية لغير الله جرت أهل الجاهلية إلى كل الضلالات السابقة وتحكيم الأهواء والعادات والتقالييد) (١٧).

وهي بناء على ذلك تعني مفهوم الضلالات ، والسفه ، والطيش ، وتحكيم العادات والتقالييد ، بعيداً عن منهج الله في السياسة والاقتصاد والعقائد والحياة الاجتماعية، وتتلون بشعارات براقة كثيرة، قد تخدع وتسسيطر على العقول عندما تضعف آصرة العقيدة، والتوحيد وتحكيم شرع الله.

وستتابع هذا المفهوم ، مفهوم الجاهلية في الشعر الجاهلي الذي يصور لنا حياة العرب قبل الإسلام في حروبهم وثاراتهم وعاداتهم وتقاليدهم وعقائدهم وخرافاتهم ، مما سنجمله في الفصول التالية بإذنه تعالى :

- ١ - الأول: الحياة السياسية أو الصراع القبلي.
- ٢ - الثاني: الحياة الاجتماعية ، وما فيها من عادات وتقالييد.
- ٣ - الثالث: الحياة الدينية ، وما فيها من عقائد وتصورات وخرافات.
- ٤ - الرابع: الحياة الاقتصادية وأمور حياتهم ومعاشرهم.

الفصل الأول

الحياة السياسية عند العرب

أو : الصراع القبلي

أ - لمحة موجزة عن حياة العرب قبل الإسلام :

إن العرب ينحدرون من أصلين كبيرين: قحطان وعدنان (١٨).

١ - عرب الجنوب :

وكان موطن قحطان باليمن ثم تشعبت قبائله وبطونه من سبأ بن يشجب ابن يعرب بن قحطان ، وكان منهم قبيلة حمير ومنها قضاعة ، ومنهم كهلان وأشهرهم طيء وهمدان وكندة ولخم والأزد ، وأولاد جفنة ملوك صحراء الشام.

هاجرت هذه القبائل بعد انهيار مأرب عام (١٢٠ق.م) فسكنت الأزد المدينة ، وكان منها الأوس والخزرج ، ومنهم من نزل على ماء غسان في الشام وأسسوا إماراة الغساسنة والموالية للروم ، أما لخم فقد سكنت الحيرة ، واصطفتهم فارس إلى جوارها وبقي في اليمن كثير من قبائل حمير وكندة وغيرهم.

ويلاحظ أن قبائلهم المهاجرة اختارت غالباً جوار الأمم المتحضررة ويدرك المؤرخون أن عرب الجنوب كانت لهم قدم راسخة في عمارة القصور والهياكل وتشييد السدود وكانوا يؤلهون الكواكب والنجوم.

٢- عرب الشمال:

وكان موطن عدنان مكة المكرمة وما جاورها من أرض الحجاز وتهامة ، وقد تشعبت بطون هذا الفرع من نزار بن معد بن عدنان من ولد إسماعيل - عليه السلام - . ثم هاجرت بعض هذه البطون إلى مواطن الخصب والكلا .. فنزلت ربيعة شرقاً ، فأقامت عبد القيس في البحرين ، وحذيفة في اليمامة ، وأقامت سائر بكر بن وائل ما بين البحرين واليمامة ، وعبرت تغلب الفرات فأقامت في أرض الجزيرة بين دجلة والفرات ، وسكتت تميم في بادية البصرة.

وأما فرع مضر بن معد بن عدنان: فقد نزلت سليم بالقرب من المدينة وأقامت ثقيف في الطائف ، واستوطنت ساذر هوازن شرقي مكة المكرمة ، وسكتت أسد شرقي تميماء إلى غربى الكوفة ، وسكتت ذبيان بالقرب من تميماء إلى حوران (١٩).

وبقيت معيشة هذه القبائل صحراوية بدوية ، ولم تهيء لهم هذه الحياة الاستقرار إلا في بعض الواحات في الحجاز.. ويظهر أن عرب الشمال لم ينجحوا في وحدة سياسية قبل الميلاد ، فطبيعة بلادهم تدفعهم إلى التشتت والتفرق (٢٠).

٣- القبائل العربية:

النظام القبلي :

وهكذا (استقرت القبائل العربية في الجزيرة وتجاور العدنانيون والقطانيون ، ولم يكن لهذه القبائل دولة تشمهم ، ولا نظام موحد يسودهم بل كانت كل قبيلة تكون وحدة اجتماعية وسياسية مستقلة).

(وكانت هذه القبائل متشابهة في تكوينها ونظامها ، فكل قبيلة تقوم على أساس اشتراك أبنائها في الأصل الواحد والموطن الواحد. والرباط الأقوى في القبيلة هو العصبية، والعصبية كما يعرفها ابن خلدون في مقدمته: «النصرة على ذوي القربي وأهل الأرحام أن ينالهم أو تصيبهم هلكة»).

(وأفراد القبيلة متضامنون كلهم في المصائب والمسرات فقالوا: في الحرب تشترك العشيرة).

(ثم نشأ عن طبيعة الجزيرة العربية وحتمية انتقال العرب وراء الماء وطلبًا للكلأ ، نشأ النظام القبلي كضرورة اجتماعية ، وحورية حتى ينتقلوا في جماعات عشائر توفر لأفرادها الحماية والأمن .. ولم يقتصر وجودها على البادية بل تعداها إلى الحواضر على قلتها وتأثيرها في الصحراء المترامية)(٢١).

ولقد كانت هيمنة القبيلة هي الأساس في الباية والحاضرة حيث أن (هذه القبائل لم تفقد صورتها القبلية فقد ظل لكل منها منازلها الخاصة ومعاقلها الصغيرة ، وسيادتها وشئونها الخاصة ، ومرد ذلك إلى أن رابطة القبيلة كانت أقوى من رابطة المدينة حتى لقد تؤدي الشارات بين قبيلة وقبيلة إلى انقسام المدينة على نفسها) (٢٢).

فوحدة القبيلة كانت أمراً مقدساً ترتب عليه طائفة من التقاليد يحدد علاقة الأفراد مع بعضهم.. وعلاقة الأفراد بقبائلهم لأن القبيلة هي الوحدة الاجتماعية التي عرفها المجتمع الجاهلي في الbadية والمدن.. وكان أفراد القبيلة يؤلفون أسرة واحدة قائمة بذاتها لا اختلاط فيها ، متجانسة لا تباين بين أفرادها.. يعمل الجميع في سبيل هدف واحد وهو المحافظة عليها (٢٣).

العصبة:

وقد آمنت القبيلة بوحدتها وجعلت ذلك أمراً مقدساً ، ترتب عليه طائفة من التقاليد الاجتماعية ، تحدد واجبات الأفراد وحقوقهم وأساس هذه التقاليد هو العصبية ، التي تقضي أن يُنصر الفرد من قبل أفراد قبيلته ظالماً أو مظلوماً.

ولو رجعنا إلى الشعر الجاهلي لوجدنا الكثير منه يصور لنا هذه العصبية دون الاحتكام إلى عقل مستنير ولا هدى أو بصيرة ، لأن التعصب لقبيلته يفوق كل اعتبار .

يقول ديد بن الصمة (٢٤):

أمرتهم أمرى يمنع ج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلى صحي الغد

فلما عصوني كت م منهم وقد أرى غوايthem وأنني غير مهتد
 وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد
 فالشاعر يرىرأي قبيلته غزية ، بل يتنازل عن رأيه من أجل رأيها ، ولو كان خطأً.. فغيه
 وضلاله، وكذلك رشده ترتبط كلها بعشيرته فإن ضلت ضل معها، وأمعن في ضلاله، وإن
 اهتدى اهتدى معها وأمعن في هداه.

والنابغة الذبياني يعبر عن المعنى نفسه بقوله (٢٥) :

حدبت علي بطون ضبة كلها إن ظالماً فيهم وإن مظلوماً
 وعلى الفرد أن يحترم رأي قبيلته فلا يخرج عليه ولا يكون سبباً في تمزيق وحدتها أو
 الإساءة إلى سمعتها بين القبائل أو تحميلاها ما لا تطيق ، ولذلك اتخذت القبيلة حق
 الخلع أي الطرد لبعض أفرادها إذا تمردوا على تقاليدها من قتل بعض أفرادها أو تعدد
 جرائره عليها أو سوء سلوكه من الناحية الأخلاقية حسب مفاهيمهم للأخلاق آنذاك ، ويعتبر
 الخلع أشد عقوبة توجه للفرد في المجتمع البدوي (٢٦).

شيخ القبيلة:

فجناية كل فرد من أفراد القبيلة جناية المجموع يعصبونها برأس سيد العشيرة ولهم عليه أن
 يتحمل تبعاتها وله عليهم أن يطيعوه فيما يأمرهم به ، وشيخ القبيلة يكون عادة شيخاً
 مجريباً هو سيدها له حكمة وسداد رأي وسعة في الشروة.. وهو الذي يقودها في حروبها
 ويقسم غنائمها ، ويستقبل وفود القبائل الأخرى ، ويعقد الصلح والمحالفات ويقيم
 الضيافات ، وسيادته رمزية وإذا بغي كان جزاؤه جزاء كلب التغلبي عندما بغي وطغى على
 أحلافه من قبيلة بكر فقتلوا مما كان سبباً في نشوب حرب البسوس المشهورة.

ولا بد من توفر صفات في شيخ العشيرة وقادتها ، كالشجاعة والحسب والكرم والنجدة
 وحفظ الجوار وإعانة المعوز ولا بد أن يتحمل أكبر قسط من جرائر القبيلة وما تدفعه من
 ديات ، وغالباً يرث الشيخ سيادته عن آبائه (٢٧) ، وإلى ذلك يشير معاوية بن مالك
 سيد بنى كلاب وهو الملقب (بمَعُود الحكماء) حيث يقول (٢٨) :

إني أمرؤ من عصبة مشهورة حشد ، لهم مجد أشم تليد
ألفوا أباهم سيداً وأعانهم كرم وأعمام لهم وجدود
نعطي العشيرة حقها وحقيقة فيها ، وتغفر ذنبها وتسود
وإذا تحملنا العشيرة ثقلها قمنا به ، وإذا تعود نعود
ويقول عبد الله بن عنة وكان حليفاً لبني شيبان يرثي بسطام بن قيس سيد بنى شيبان
ويذكر أعلام رياسته وقيادته (٢٩) :

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول
والمرباع هو ربع الغنية كان الرئيس يأخذه في الجاهلية ، والصفايا جمع صفية وهي ما
كان يصطفيه الرئيس لنفسه من خيار الغنية ، والنشيطة ما أصابه الجيش في طريقه قبل
الغارة من فرس أو ناقة ، والفضول ما فضل فلم ينقسم نحو الإداوة والسكين والنوعان
الأخيران قد سقطا في الإسلام.

الاعتذار بالأنساب والقوة:

ولقد آمنت القبيلة بوحدة جنسها - أي وحدة الدم - فهم جنس ممتاز لا تفضلهم قبيلة
أخرى ، وهم يفضلون كل القبائل آباؤهم أشرف آباء وأمهاتهم أكرم أمهات ، وهم أجدر
الناس أن يكونوا خير الناس ، ولعل هذا ما يفسر لنا تلك المنافرات التي امتلأت بها
أخبار العصر الجاهلي ، وذلكر الفخر الذي تدوي أصداوه في قصائد شعرائه (٣٠) .

ولعل معلقة عمرو بن كلثوم خير ما يمثل الاعتذار بالنسب ، والفخر بالأباء ، والأجداد
(٣١) حيث يقول:

- ١ - ورثت مهلاً (٣٢) والخير منه زهيراً نعم ذخر الذارينا
- ٢ - وعتاباً وكلثوماً جميماً بهم نلنا تراث الأكرمينا
- ٣ - ومنا قبله الساعي كليب فأي المجد إلا قد ولينا
ثم يعتز بقوه قبيلته وعزتها وجبروتها فيقول:
- ٤ - ونحن الحاكمون إذا أطعنا ونحن العازمون إذا عصينا

- ٥- ونحن التاركون لما سخطنا
 ٦- وأنا المنعمون إذا قدرنا
 ٧- وأنا الشاربون الماء صفوأ ويشرب غيرنا كدراً وطيناً

وإلى أن ينسى الشاعر نفسه ويتصور أنهم ملوك الدنيا المتصرفون الباطشون بلا رادع حيث يقول:

- ٨- لنا الدنيا ومن أضحي إليها ونبطش حيث نبطش قادرينا
 ٩- إذا ما الملك سام الناس خسفاً أبينا أن نقر الخسف فينا

والمعلقة كلها ضجيج وصياح وهياج وإزباد يتجاوز حدود العقل إلا أنها الجahلية المتغطرسة، انظر إليه حيث يقول:

- ١٠- إذا بلغ الفطام لنا صبي تخر له الجبابر ساجدينا
 ١١- ملأنا البر حتى ضاق علينا وظهر البحر نملؤه سفيننا
 ١٢- ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجahلية

فالشاعر يفتخر بكثرة عدد عشيرته حتى ملأ أفرادها وجه الأرض وضاق البحر بسفنه؟!، وطفلهم إذا بلغ الفطام انحنى له الجبابرة سجوداً ومذلة.

والشاهد كثيرة نختار منها بعض النماذج لإعطاء صورة واضحة عن جبروت الجahلية وغطرستها.

فالمرقس الأكابر يفتخر بكثرة عدد قومه منبني بكر بن وائل إذ يقول (٣٣):

- هلا سألت بنا فوارس وائل فلنحن أسرعها إلى أعدائها ولنحن أكثرها إذا عد الحصى ولنا فواضلها ومجد لوانها

ثم يفتخر بقوة قومه في الحروب ، فهم شعب الرؤوس لأنهم أكفهم في القتال أجود ذوى مروءة ، وأن ناديهم خير ناد وأشرفه فيقول (٣٤):

- شعب مقادمنا نهبي مراجلنا نأسو بأموالنا آثار أيدينا المطعمون إذا هبت شامية وخير ناد رآه الناس نادينا

فهم أصحاب حروب وقرى.

وطرفة بن العبد يفتخر بقبيلته بكر ويتحدث عن كرمها وقوتها وحسبها إذ يقول (٣٥):

- ١- ولقد تعلم بكر أنا آفة الجزر مساميح يُسر
- ٢- ولقد تعلم بكر أنا فاضلوا الرأي وفي الروع وُقر
- ٣- ولقد تعلم بكر أنا صادقو البأس وفي المحفل غر

والشاعر لبيد بن ربيعة يفخر بآحساب قومه وشرفهم في معلقته ، فالمنجد فيهم قد سنَّه آباؤهم وعلموهم إياه فتبעהه صغارهم بعد كبارهم إذ يقول (٣٦):

من عشر سنت لهم آباؤهم ولكل قوم سُنة وإمامها
فبنوا لنا بيتاً رفيعاً سماكه فسما إليه كهلها وغلامها

وكانت كل قبيلة تؤلف وحدة مناوبة لكل القبائل الأخرى لذلك يحزن الشاعر ذو الإصبع العدوانى على تفرق قومهبني عدوان واحتلافهم بعد ائتلافهم واتحادهم فيقول (٣٧):

- ١- عذير الحي من هذوا من كانوا حية الأرض
- ٢- بغي بعضهم بعضاً فلم يُرْعُوا على بعض
- ٣- ومنهم كانت السادات والموفون بالقرض

وعدوان من قيس عيلان بن مضر بن نزار ، كانوا من أعز العرب وأكثراهم عدداً ثم وقع بأسمائهم بينهم فتباينوا.

إن الأنساب مهمة وأساسية في حياة العربي آمن بها إيماناً شديداً ، وصارت علمًا عندهم إذا رأوا فيه ما يراه الناس في الوطن الآن.

والقبائل جميعها المتبدية منها والمتحضرة كانت تتحدد في نظمها السياسية ، وهي نظم قبلية تشتهر في تقاليد وأعراف وتنتمس بعها تمسكاً شديداً ، الرابط الوحيد بين أفرادها هو العصبية ، فيها يجد الفرد الأمان والسلامة في مجتمع لا يؤمن إلا بالقوة حيث لا دولة تحمي ، ولا سلطة يتحاكم إليها ، والعصبية قبلية ليس فيها شعور واضح بالجنس العربي العام ، حتى الإمارات التي تكونت في شمال الجزيرة ظلت تقوم على أساس العصبية

القبلية.. ولم ينفذ هؤلاء جمِيعاً إلى فكرة الأمة العربية أو الجنس العربي بحيث يجمعون العرب تحت لواء واحد ، إنما كل ما هنالك اتحاد قبلي له رئيس (٣٨) ، مما ستره في حديثنا عن هذه الإمارات.

وكانت القبائل تعقد الأحلاف مع قبائل أخرى من أجل حروبهم ويضع أفراد القبيلة أنفسهم في خدمتها وخدمة حقوقها وعلى رأسها حق الأخذ بالشار و كثيراً ما تتكرر الحروب والغارات وهي ما تسمى أيام العرب... فكل قبيلة مستعدة دائماً للحرب والإغارة وهلأ دائماً شاكية السلاح ، ولذلك كانت الشجاعة والفروسية مثلهم الأعلى. هذه الصراعات الدامية تشكل قوام حياة العرب السياسية وعلاقتهم الحربية.

الإمارات العربية في شمال الجزيرة (٣٩):

أقام العرب إمارات لهم في عدد من المناطق ، في تخوم الشام حيث أسس الغساسنة إمارة لهم في شرقي الأردن والجولان وأسس المناذرة في الحيرة دولتهم على أطراف بلاد فارس.. ولقد اصطنعت الدولتان الكبيرات هاتين الإماراتين لتكونا درعاً واقية لهما ضد غارات الأعراب من القبائل العربية ، وكثيراً ما وقعت الحروب بين هاتين الإماراتين لصالح فارس والروم ، وبدوافع قبلية أخرى.

(١) لقد كان من ملوك الغساسنة المشهورين الحارث بن جبلة، وكان قد تنصر ثم خلفه ابنه المنذر، ومن ملوكهم الحارث الأصغر، وكانت جيوش الغساسنة تشتبك مع قبائل نجد كبني أسد، وبني فزارة، وقع كثير من أسرى القبيلتين في يد عمرو أحد أبناء الحارث الأصغر ، فقصده النابغة الذبياني يمدحه متواصلاً إليه في فكاكهم ، ومن روائع مدائحه فيه البائية حيث يقول (٤٠):

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدي بعصائب
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب
وعمره هو ممدوح حسان بن ثابت - رضي الله عنه - ، وقد كان ينزل به وبغيره من أمراء الغساسنة ومن مدحه فيهم (٤١):

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم شم الأنوف من الطراز الأول
يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد الم قبل

(٢) أما الماذرة: فقد أقاموا دولتهم في العراق كما عرفنا ، حيث رحلت قبائل لخم وتنوخ ، واصطعنهم الفرس ليحاربوا بهم عرب الشام أحلاف الروم ، ومن أهم ملوكهم المنذر بن ماء السماء (٥١٤ - ٥٥٤ م) ، وامتد سلطانه على عدد من قبائل نجد وكان له يومان: يوم نعيم، ويوم بؤس ، ومن قتل في يوم بؤسه: الشاعر عبيد بن الأبرص ، ومقتل المنذر في حربه مع الغساسنة في وقعة عين أباغ عندما سار المنذر في معد كلها إلى الحارث الأعرج ملك العرب بالشام وطلب منه الفدية أو الحرب إلا أن جيشه هُزمت بعد أن قُتِل ولدان الحارث الأعرج، ثم سار الحارث إلى الحيرة وأحرقها بعد نهبها (٤٢) ، ثم خلف المنذر ابنه عمرو بن هند، وكان طاغية مستبدًا، هجاه الشعراء منهم

سويد بن حذّاق حيث يقول (٤٣):

أئي القلب أن يأتي السدير وأهله وإن قيل عيش بالسدير غزير
به البَقَ والْحُمَّى وأسدُ خَفَيَّةٍ وعمرو بن هند يعتدي ويجرور

وقد قتله عمرو بن كلثوم في قصة مشهورة يشير إليها في معلقته (٤٤):
بأي مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
تهددنا وتوعدنا رويداً متى كنا لأمرك مقتولينا (٤٥)

ومن ملوكهم: النعمان الثالث بن المنذر المكنى بأبي قابوس ، وقد امتد سلطانه إلى نجد والبحرين وعمان ، واشتهر بلطائمه التي كانت إجاراتها سبباً في حروب شغلت قبائل قيس ردحاً من الزمن، ويقال: إنه لقي مصرعه على يد كسرى بسبب قتله عدي بن زيد العبادي.. أبو قابوس هو ممدوح النابغة والذي قال فيه اعتذارياته ومنها قوله (٤٦):
أنبئت أن أبا قابوس أوعدني ولا قرار على زار من الأسد

وبسبب مقتل أبي قابوس وودائعه التي تركها في قبيلة بكر كانت وقعة ذي قار بين بكر وحلفائها وجيوش كسرى من الفرس وحلفائه من قبائل العرب.

لقد أدت هاتان الإمارتان دورهما في خدمة سادتهما خير أداء ، فقد بطش ملوكيهم بقبائل العرب بطشاً مريعاً ففي يوم أوارة الأول مثلاً يبطش المنذر بن ماء السماء بقبيلة بكر ؟ لأنها رفضت طاعته ، ويقتل منها خلقاً كثيراً بعد حرب دامية ، ثم أسر منهم عدداً كبيراً وأمر بهم أن يذبحوا على جبل أوارة حتى جعل الدم يحمد وأمر النساء أن يحرقن بالنار (٤٧).

وابنه عمرو بن هند وضع ابناً له عند سيد بنى تميم زراة بن عُدس ، وكان صغيراً ، خرج يصطاد بعد أن أصبح رجلاً ، ومر بإبل لزوج ابنة زراة وأمر بيكره منها فُحرت ، وكان صاحب الإبل نائماً فلما انتبه ضربه بعصا ولم يعرفه فمات.. فخرج سعيد صهر زراة هارباً إلى مكة المكرمة ، وهرب زراة أيضاً إلى أن قيل له: أئت الملك واصدقه.. فجاء الملك وأخبره الخبر فقال: جئني بسعيد ، قال: قد لحق بمكة ، قال: فعلي بيئه ، فأتى بيئه السبعة من ابنة زراة وهم غلمة بعضهم فوق بعض فأمر بقتلهم ، تناولوا أحدهم فضرموا عنقه ، فتعلق الآخرون بزرارة ، فقال زراة: يا بعضي سرّح بعضاً ، ثم قتلوا ، وألى عمرو ليحرقن من بنى درام مائة رجل.. فبعث بجيش على مقدمته عمرو بن ملقط الطائي فأخذ ثمانية وتسعين منهم - من بنى دارم - ولحقه عمرو بن هند في الناس حتى انتهى إلى أوارة وهو جبل من ناحية البحرين.. وأمر الملك بأخدود فخذ لهم ثم أضرم ناراً ثم قذف بهم في النار ، ومن هنا سمته العرب: محرقاً (٤٨).

وبقي أمر الحيرة مضطرباً بعد مقتل أبي قابوس ، حتى فتحها المسلمين ، وأذعنـت لخالد بن الوليد - رضي الله عنه -.

- وهناك إمارة كندة: في شمال نجد في دومة الجندي ، ومن أشهر ملوكيهم حجر الملقب بـأـكل المـرار ، وقد سيطر على القبائل الشمالية في نجد واليـمامـة ، ثم جاءـ بـعـدهـ حـفيـدـهـ الحـارـثـ الـذـيـ عـيـنـ أـبـنـاءـهـ عـلـىـ قـبـائـلـ نـجـدـ ،ـ مـنـهـ اـبـنـهـ وـالـدـ اـمـرـيـ الـقـيـسـ

(حجر) الذي ساءت سيرته فيبني أسد فقتله بعد أن انهزمت كندة وغنمـت أسد أموالهم وفي ذلك يقول عبيـد بن الأبرـص (٤٩):

هـلا سـأـلت جـمـوعـ كـنـدـةـ يـوـمـ وـلـوـاـ أـيـنـ!ـ أـيـنـاـ

وـأـمـضـىـ اـمـرـؤـ الـقـيـسـ بـقـيـةـ حـيـاتـهـ مـسـتـعـيـنـاـ بـقـبـائـلـ الـعـرـبـ مـنـ حـمـيـرـ وـطـيـءـ يـرـيدـ أـنـ يـثـأـرـ مـنـ بـنـيـ أـسـدـ ،ـ وـيـسـتـعـيـدـ مـلـكـ آـبـائـهـ ،ـ فـلـمـ يـشـتـفـ ،ـ وـاتـجـهـ إـلـىـ قـيـصـرـ الـرـوـمـ وـلـقـيـ حـتـفـهـ بـيـنـماـ كـانـ رـاجـعـاـ..ـ وـمـنـ شـعـرـهـ فـيـ ذـلـكـ (٥٠):ـ

بـكـىـ صـاحـبـيـ لـمـاـ رـأـىـ الدـرـبـ دـوـنـهـ وـأـيـقـنـ أـنـاـ لـاـ حـقـانـ بـقـيـصـراـ

فـقـلـتـ لـهـ لـاـ تـبـكـ عـيـنـكـ إـنـمـاـ حـاـوـلـ مـلـكـاـ أـوـ نـمـوـتـ فـعـذـرـاـ

مـكـةـ الـمـكـرـمـةـ وـغـيـرـهـاـ مـنـ مـدـنـ الـحـجـازـ (٥١):ـ

تـقـوـمـ مـكـةـ الـمـكـرـمـةـ فـيـ مـنـتـصـفـ الـطـرـيـقـ الـمـعـبـدـ بـيـنـ الـيـمـنـ وـالـشـامـ حـيـثـ تـمـسـكـ بـزـمـامـ

الـقـوـافـلـ الـتـجـارـيـةـ وـتـعـتـبـرـ أـكـبـرـ مـرـكـزـ دـيـنـيـ لـلـوـثـنـيـةـ عـنـدـ الـعـرـبـ.

لـقـدـ كـانـتـ مـسـكـنـاـ لـجـرـهـمـ وـبـقـيـاـيـاـ الـأـمـمـ الـبـائـدـةـ ،ـ ثـمـ سـكـنـهـاـ إـسـمـاعـيـلـ -ـ عـلـيـهـ الـصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ

-ـ وـأـصـهـرـ إـلـىـ قـبـيـلـةـ جـرـهـمـ ،ـ ثـمـ أـجـلـتـ قـبـيـلـةـ خـزـاعـةـ قـبـيـلـةـ جـرـهـمـ عـنـ مـكـةـ الـمـكـرـمـةـ.

ثـمـ نـزـلـهـاـ قـصـيـ وـمـعـهـ قـبـيـلـةـ قـرـيـشـ وـأـصـهـرـ إـلـىـ خـزـاعـةـ ،ـ وـأـسـاءـتـ هـذـهـ قـبـيـلـةـ إـلـىـ الـبـيـتـ

الـعـتـيقـ فـأـخـرـجـهـاـ قـصـيـ وـمـعـهـ.

كـانـ قـصـيـ بـنـ كـلـابـ مـطـاعـاـ فـيـ قـوـمـهـ ،ـ سـيـداـ رـئـيـساـ مـعـظـمـاـ ،ـ وـلـيـ الـبـيـتـ وـأـمـرـ مـكـةـ وـجـمـعـ

قـوـمـهـ مـنـ مـنـازـلـهـمـ الـمـتـفـرـقـةـ ،ـ وـتـمـلـكـ عـلـىـ قـوـمـهـ فـمـلـكـوـهـ ،ـ وـأـقـرـ الـعـرـبـ عـلـىـ مـاـ كـانـوـاـ عـلـيـهـ مـنـ

الـنـسـيـءـ وـالـإـجـازـةـ مـنـ مـزـدـلـفـةـ..ـ حـتـىـ جـاءـ الـإـسـلـامـ فـهـدـمـ بـهـ اللـهـ كـلـ ذـلـكـ..ـ وـكـانـتـ إـلـىـ قـصـيـ

الـحـجـابـةـ وـالـسـقـاـيـةـ وـالـرـفـادـةـ وـالـنـدـوـةـ وـالـلـوـاءـ ،ـ فـجـازـ شـرـفـ مـكـةـ كـلـهـ ،ـ وـقـطـعـ مـكـةـ رـبـاعـاـ بـيـنـ

قـوـمـهـ فـأـنـزـلـ كـلـ قـوـمـ مـنـ قـرـيـشـ مـنـازـلـهـمـ مـنـ مـكـةـ.

قـالـ قـائـلـهـمـ فـيـ مـدـحـ قـصـيـ وـشـرـفـهـ (٥٢):ـ

قـصـيـ لـعـمـرـيـ كـانـ يـدـعـيـ مـجـمـعـاـ بـهـ جـمـعـ اللـهـ الـقـبـائـلـ مـنـ فـهـرـ

هـمـوـ مـلـأـواـ الـبـطـحـاءـ مـجـداـ وـسـؤـدـداـ وـهـمـ طـرـدـواـ عـنـاـ غـوـاـةـ بـنـيـ بـكـرـ

لم تدن مكة لأي ملك أجنبي ، وفي ذلك يقول حرب بن أمية (٥٣):

أبا مطر هلم إلى صلاح فتكفيف الندامى من قريش
فتأنم وسطهم وتعيش فيهم أبا مطر هديت لخير عيش
وتنزل بلدة عزت قدیماً وتأمن أن يزورك رب جيش

(ولم يؤد أهل مكة في الجاهلية إتاوة قط ، وفرضوا على العرب قاطبة أن يطروا أزواط الحل إذا دخلوا الحرم ، وهم بعد أعز العرب فيتأنرون عليهم قاطبة) (٥٤).

وكانوا يأخذون إتاوة من التجار الأجانب إذا ألموا بهم ، مما يؤكّد زعامة قريش ومكانتها عند العرب، فمكة بيت كعبتهم، وبيت تجارتهم، أقاموا حولها الأسواق التجارية، كسوق عكاظ ، ومجنة ، وذى المجاز ، وكان يعرض فيها الشعر والأدب أيضاً ، وفيها - في مكة - دار الندوة ، وهو مجلس شيوخ مصغر للنظر في شؤونها الدينية والتجارية ، وكان كثير من العرب يرى سادة قريش فوق آل جفنة من الغساسنة إلا أن مجتمعها كان قبلياً على أي حال فهو لا يعدو اتحاد عشائر ارتبط بعضها بعض في حلف لغرض سداحة الكعبة والقيام على تجارة القوافل ولا سلطان لعشيرة على عشيرة.

كان مجلس دار الندوة ينظر في شؤون مكة ومصالحها حسب قوانين العرب والعادات ، وكان للفرد حريةه وللجماعة عليه حقوق لا تتناقض مع هذه الحرية (٥٥).

وكانت الطائف مصيفاً جميلاً يصطاف فيه القرشيون حيث الشمرات اليانعة والخمرة الصافية ، كانت تنزلها قبيلة ثقيف الوثنية ، وكانت حياتهم لا تختلف عن حياة القبائل النجدية البدوية في شيء سوى ما أثاحته لهم زروعهم وثمارهم من الاستقرار على نحو ما استقرت قريش في مكة المكرمة.

أما المدينة المنورة (يشرب) كما كان اسمها فقد سكنها اليهود في القرن الثاني الميلادي على أثر اضطهاد الروم لهم في فلسطين ، وظلوا يحتفظون بدينهم واتخذوا العربية لغة لهم في حياتهم اليومية ، وظلوا يحتفظون بالعبرية في طقوسهم الدينية ، وظهر بينهم عدد من الشعراء أمثال كعب بن الأشرف.

بقي اليهود يسيطرون على المدينة المنورة حتى وفدت عليهم قبائل الأوس والخزرج من اليمن، فأصبحوا هم سادتها الحقيقيين، وكانوا وثيقين يحجون إلى مكة وأصنامها، ويعتمدون على زروع بلدهم وثمارها بينما كان اليهود يعتمدون على الحرف والصناعات وخاصة صناعة الأسلحة.

كانت حياة الأوس والخزرج تشبه حياة البدو مع أنهم سكنا آطام المدينة يتحاربون على نحو ما تتحارب القبائل البدوية...

كان اليهود يشرون نار العداوة بينهم حتى كثرت أيامهم ووقائعهم مثل يوم حاطب ويوم فارع ، والبقيع ، ويوم بعاث وغيرها (٥٦).

وأصبحت الحياة بينهم دامية وكأنما تعاهدوا على الفناء لولا أن مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم بِرَسُولِهِ ، فأصبحوا بنعمة اللَّهِ إِخْوَانًا .

وكان هنالك قرى خاصة باليهود أشهرها خيبر وفدرك وتيماء ، وما زالوا بها حتى أخرجهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - من الجزيرة كلها وظهر من بينهم شعراء أمثال السموآل بن عادباء بتيماء الذي كان معاصرًا لامرئ القيس.

ومن المؤكد أن عرب الجاهلية لم يكونوا يطمئنون إلى هؤلاء اليهود جميعاً ولذلك لم يتأثروا بهم في حياتهم الدينية فقد ظلوا بعيدين عنها (٥٧).

هذه صورة عامة لحياة العرب وظروفهم السياسية في الحاضرة والبادية في القبائل والمدن ، لم نجد بينها فرقاً يذكر ، حيث إن النظام القبلي ، هو الذي كان يسود حياتهم وعلاقتهم كلها.

وسوف نتعرض في الصفحات القادمة إلى الحروب ، والأحلاف وعادات الشار والأسر والسبى والصلاح والسلم ، والأيام التي كانت حديث مجالسهم وسمرهم.

الحروب في الجاهلية:

أ - أسبابها (٥٨):

إن الصلات القبلية كانت قد أنسنت على العداء والحروب المتوالية ، أو على المحالفه والنصرة.

ولو تسألنا ما أسباب هذه الحروب؟ وما الدوافع الكامنة وراء قيامها؟ لوجدنا أن الاختلاف على الماء والمرعى بسبب جفاف الصحراء وقلة الموارد من أهم هذه الأسباب، كما حصل في يوم سفوان عندما التقى بنو مازن وبنو شيبان على ماء يقال له سفوان فرعمت كل قبيلة أنه لها (٥٩).

وقد تستعمل الحرب رغبة في السلب والغارة؛ لأن هؤلاء الغزاة جعلوا أرزاقهم في رماحهم، ويصور لنا القطامي (وهو شاعر مخضرم) الفرسان وغاراتهم ، وديدنهم في السلب والغارة (٦٠):

وَكَنْ إِذَا أَغْرَنَ عَلَى جَنَابِ
وَأَعْوَزْهُنَ نَهْبَ حَيْثُ كَانَا
وَأَحْيَانًا عَلَى بَكْرِ أَخِينَا
إِذَا مَا لَمْ نَجِدْ إِلَّا أَخَانَا

وكان الاستيلاء على الغنائم أو الأسرى من الدوافع الأساسية للحروب الجاهلية، ومن وصية أكثم بن صيفي عندما بلغ قومه أن مذحجاً وأحلافهم عازمون على غزوهم: (البسوا جلود النمر ، والثبات أفضل من القوة ، أهنا الظفر كثرة الأسرى ، وخير الغنيمة المال) (٦١).

فالحروب كانت ضرورة أساسية للحصول على العيش ولذلك افتخر الفرسان بجمع الأسرى والغنائم من الإبل وغيرها.

يقول سلامة بن جندل: إن بقاوه بعيداً عن الغزو، سيؤخره عن جمع الإبل التي لا يسقيها الساقى إلا بعد شق النفس والجهد الجهيد لكثرتها (٦٢):

تقول ابنتي إن انطلاقك واحداً
إلى الرّوع يوماً تاركي لا أباً لي
دعينا من الإشراق أو قدمي لنا
ستتلف نفسي أو سأجمع هجمة
من الحدثان والمنية واقيا
ترى ساقيهما يلآن التراقيا

وقد تثور الحرب بسبب المنافرة بين خصمين سعياً وراء الشهرة والسيادة ، فإذا حكم القاضي لأحدهما زاد العداء اشتعالاً ، وإذا كان الحكم خبيراً بما سيجره حكمه من تصدع سوي بين المتنافرين كما فعل هرم بن قطبة حينما سُوى بين عامر بن الطفيلي وعلقمة بن عائلاة العامريين.

وقد تشتعل الحرب نصرة لقريب وإن كان ظالماً أو مظلوماً ، على الحقيقة وليس على المجاز من نصح أخيه وفي ذلك نصرته ، وربما غير الشاعر قبيلته من جراء تخليها عن نصرته ، قال قريط بن أبيه ، وكان بعض بنى شيبان أغار على إبله ، فاستنجد بقومه فلم ينجدوه لجأ عندها إلى بنى مازن من قبيلة تميم فأنجدوه (٦٣) :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي بتو اللقيطة من ذهل بن شيبان
إذاً لهب لنصري عشر خشن عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا
لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
فليت لي بهم قوماً إذا ركبوا شدوا الإغارة فرساناً وركبانا

وقد تقوم الحرب لأسباب أخرى منها إجازة المستجير أو حماية الجار كما حصل في حرب سمير بين الأوس والخرج.

وربما نشأت الحرب بسبب الدفاع عن العرض ، أو الأخذ بالثار ، أو بسبب المنافسة على رئاسة وزعامة ، وقد تجر المنافسة الطائشة إلى ويلات وحروب وتكون الأسباب تافهة كما حصل في حرب البسوس الشهيرة بين بكر وתغلب حيث قتل كليب على يد جساس ولا ننسى حرب داحس والغبراء ، التي استمرت أربعين سنة ، بسبب سباق بين فرسين.

ومن الحروب الشهيرة حروب الفجار ، وكلها نشأت لأسباب واهية مما ستجد نماذج عنها في حديثنا عن أيام العرب بإذنه تعالى.
ويوجز الألوسي أسباب القتال والحروب عامة حيث يقول:

(وسبب هذا الانتقام في الأكثـر إما غيرة ومنافسة، وإما عدوـان، وإما غضـب للـه ولـديـه، وإـما غضـب لـلـملك وـسعي فيـ تـمهـيـدـه ، فـالـأـولـ أـكـثـرـ ماـ يـجـريـ بـيـنـ الـقـبـائـلـ الـمـتـجـاـوـرـةـ والـعـشـائـرـ الـمـتـنـاـظـرـةـ ، والـثـانـيـ وـهـوـ الـعـدـوـانـ أـكـثـرـ ماـ يـكـوـنـ مـنـ الـأـمـمـ الـوـحـشـيـةـ السـاـكـنـيـنـ بـالـقـفـرـ كـالـعـرـبـ وـالـتـرـكـ وـالـتـرـكـمـانـ وـالـأـكـرـادـ وـأـشـبـاهـهـمـ لـأـنـهـ جـعـلـواـ أـرـزـاقـهـمـ فـيـ رـمـاـحـهـمـ وـمـعـاـشـهـمـ فـيـمـاـ بـأـيـدـيـهـمـ .. وـالـثـالـثـ وـهـوـ الـمـسـمـيـ فـيـ الشـرـيـعـةـ بـالـجـهـادـ ، وـالـرـابـعـ هوـ حـرـوبـ الـدـوـلـ مـعـ الـخـارـجـيـنـ عـلـيـهـاـ وـالـمـانـعـيـنـ لـطـاعـتـهـاـ .. (٦٤ـ).

بـ - الـحـرـوبـ الـطـاحـنـةـ وـأـثـرـهـاـ عـلـيـ مـوـضـوـعـاتـ الـشـعـرـ الـمـخـتـلـفـ :

لـعـلـ أـهـمـ مـاـ يـمـيـزـ حـيـاـةـ الـعـرـبـ فـيـ الـجـاهـلـيـةـ ، أـنـهـاـ كـانـتـ حـيـاـةـ حـرـيـةـ تـقـوـمـ عـلـىـ سـفـكـ الدـمـاءـ .. حـتـىـ لـكـانـ إـرـاقـةـ الـدـمـ أـصـبـحـتـ سـنـةـ مـنـ سـنـتـهـمـ ، فـهـمـ دـائـمـاـ قـاتـلـوـنـ مـقـتـولـوـنـ لـاـ يـفـرـغـوـنـ مـنـ دـمـ إـلـاـ إـلـىـ دـمـ .

وـكـانـتـ الـحـرـوبـ تـبـدـأـ صـغـيرـةـ ضـعـيفـةـ ثـمـ تـقـوـىـ وـيـصـطـلـيـ الـجـمـيـعـ بـنـارـهـاـ ، بـلـ يـتـرـامـوـنـ فـيـهـاـ تـرـامـيـ الـفـرـاشـ فـيـهـ أـمـنـيـتـهـمـ وـمـبـتـغـاهـمـ (٦٥ـ).

يـقـولـ زـهـيرـ بـنـ أـبـيـ سـلـمـيـ (٦٦ـ) :

طـوـالـ الرـمـاحـ لـاـ ضـعـافـ وـلـاـ عـزـلـ (٦٧ـ)

إـذـاـ فـرـعـواـ طـارـوـاـ إـلـىـ مـسـتـغـيـثـهـمـ فـيـنـيـهـاـ وـكـانـواـ قـدـيـمـاـ مـنـ مـنـايـهـمـ الـقـتـلـ فـجـمـيـعـهـمـ يـطـيـرونـ إـلـىـ الـمـسـتـغـيـثـ بـخـيـلـهـمـ وـرـمـاـحـهـمـ ، وـتـدـورـ رـحـيـ الـحـرـبـ فـيـقـتـلـوـنـ مـنـ أـعـدـائـهـمـ وـيـشـفـوـنـ حـقـدـهـمـ وـيـقـتـلـ مـنـهـمـ أـعـدـاؤـهـمـ وـيـشـفـوـنـ غـلـيـلـهـمـ ، يـقـولـ دـرـيـدـ بـنـ الـصـمـةـ (٦٨ـ) :

وـإـنـاـ لـلـخـمـ السـيـفـ غـيـرـ نـكـيـرـةـ وـنـلـحـمـهـ حـيـنـاـ وـلـيـسـ بـذـيـ نـكـرـ يـغـارـ عـلـيـنـاـ وـاـتـرـيـنـ فـيـشـتـفـيـ بـنـاـ إـنـ صـبـنـاـ أـوـ تـغـيـرـ عـلـىـ وـتـرـ قـسـمـنـاـ بـذـاكـ الـدـهـرـ شـطـرـيـنـ بـيـنـاـ فـمـاـ يـنـقـضـيـ إـلـاـ وـنـحـنـ عـلـىـ شـطـرـ وـمـثـلـ قـبـيـلـةـ دـرـيـدـ قـبـائـلـ الـعـرـبـ جـمـيـعـهـاـ فـهـمـ طـعـامـ السـيـوـفـ وـهـمـ دـائـمـاـ وـاـتـرـوـنـ مـوـتـورـوـنـ .

وما كانوا يرهبون شيئاً مثل الموت حتف الأنف بعيداً عن ميادين القتال ، ميادين الشرف والبطولة ، حيث تتشاجر أشلاؤهم وتأكلها السباع ، يقول الشنفري (٦٩) :

فلا تقربوني إن قبري محرم عليكم ولكن أبشرى أم عامر
 فهو يتمنى ألا يقبر ويبشر الضبع بجسده حتى يخلد في سجل قتلى الجاهلية.
إن طبيعة العربي في باديته، من حبه للحرية ، وتعشقه للقوة ، وفضيله الموت تحت صليل السيف على حياة الذل والضييم، جعلت حياته حرباً ضرورياً لا تهدا، يقول الأفوه الأودي:
نقود ونأبى أن نقاد ولا نرى لقوم علينا في مكارمهم فضلاً
وكان القبيلة تؤمن إيماناً كلياً بإخضاع القبائل الأخرى لمشيئتها سعياً وراء المجد الرفيع
ما يدفع القبائل إلى التناحر والتصادم (٧٠).

الفخر والحماسة:

ولقد وصفوا الحرب وصفاً مسحوباً فيه فخر واعتزاز فهذا عنترة بن شداد يصف وطأة الحرب وشدة لها إذ يقول (٧١) :

ولقد حفظت وصاة عمي بالضحى إذا تقلص الشفتان عن وضح الفم
في حومة الموت التي لا تستكى غمراتها الأبطال غير تغمغم
لما رأيت القوم أقبل جمعهم يتذامرون كررت غير مذمم (٧٢)
يدعون عنترة والرماح كأنها أشطان بئر في لبان الأدهم (٧٣)
مازالت أرميهم بغرة وجهه ولبانه حتى تسربل بالدم
لو كان يدرى ما المحاورة اشتكتي ولكن لو علم الكلام مكلمي
نشوة عجيبة يحس بها عنترة وهو يخوض غمرات الموت ، فيسيطر لنا مشاعر الفخر
والحماسة في معلقته هذه.

وكان الشعراء يمدحون الشجاع ويفتخرون بالقوة والشجاعة والفروسية. يقول طرفة بن العبد في معلقته (٧٤) :

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه خشاش كرأس الحية المتوقد

إذا ابتدر القوم السلاح وجدتني منيعاً إذا بلت بقائمة يدي فالقوة وصليل السيوف ، والغارات المربعة ، هي قوام حياة العربي في باديته ومجال فخرة وعزه ، حتى أصبحت حكمتهم المنشودة تدعوا إلى الظلم حتى لا يُظلم ، ولا يجرؤ العدو على انتهاص حرقك ، يقول زهير بن أبي سلمى (٧٥):

ومن لا يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يُظلم
ومن لا يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
أي من لا يمنع عن عشيرته يذل ، ويشرح الأصماعي البيت الأول بقوله: من ملأ حوضه ثم لم يمنع منه غُشى وهدم وهو تمثيل أي من لان للناس ظلموه.

وعمر بن كلثوم يقول في معلقته (٧٦):

نسمّي ظالمين وما ظلمنا ولكنّا سنبدا ظالمينا
ثم نراه يصيغ بانتصارات قومه وأيامهم المشهورة من مثل قوله (٧٧):
متى نقل إلى قوم رحانا يكونوا في اللقاء لها طحينا
يكون ثقالها شرقي نجد ولهؤتها قضاة أجمعينا
نطاعن ما تراضى الناس عنا ونضرب بالسيوف إذا غشينا
ورثنا المجد قد علمت معد نطاعن دونه حتى يبينا
نجد رؤوسهم في غير وتر فما يدرون ماذا يتقدونا
كأن ثيابنا منا ومنهم خُضبٌ بأرجوان أو طلينا
الهوا ملش:

١ - الصناعتين: ص ١٣٨,

٢ - طبقات فحول الشعراء ١/٢٤,

٣ - انظر: الشعر الجاهلي: يحيى الجبوري ، والحياة العربية للحوفي.

٤ - العمدة.

٥ - المفضليات: ص ٦٢,

- ٦ -- العمدة ٢٥/١ ، والسبح: الماء الجاري ، والجافية: الحوض الضخم.
- ٧ - الشعر الجاهلي: يحيى الجبوري ص ١٣٦.
- ٨ - الأغاني: ٤
- ٩ - الحيوان للجاحظ: ١/٧٤.
- ١٠ - انظر العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف ص ٣٩.
- ١١ - بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ١/١٥.
- ١٢ - الصاحح للجوهري.
- ١٣ - العصر الجاهلي: دكتور شوقي ضيف ص ٣٩.
- ١٤ - انظر الشعر الجاهلي: د. يحيى الجبوري.
- ١٥ - انظر المصدرى السابقين: العصر الجاهلي ، والشعر الجاهلي.
- ١٦ - المائدة: ٥٠ ، وانظر تفسير ابن كثير.
- ١٧ - في ظلال القرآن ص ٩٠٤ ، المجلد الثاني / الآية ٥٠ من سورة المائدة.
- ١٨ - انظر العصر الجاهلي: شوقي ضيف ص ٣٩ ، والطريق إلى المدائن: أحمد عادل كمال ص ٤٠ ، وانظر أنساب العرب في أيام العرب لجاد المولى ص ٤٠٨ وما بعدها.
- ١٩ - الطريق إلى المدائن: أحمد عادل كمال.
- ٢٠ - الشعر الجاهلي: يحيى الجبوري ص ٤٣ - ٤٤.
- ٢١ - الطريق إلى المدائن ص ٤٧.
- ٢٢ - الطريق إلى المدائن ص ٤٧.
- ٢٣ - الشعراء الصعاليك: يوسف خليف ص ٨٧.
- ٢٤ - الأصميات: ص ١٠٧.
- ٢٥ - أشعار الشعراء الستة الجاهليين ، اختيارات الأعلم الشتتمري ص ٢٣٦ ، وضية: قبيلة من عذرة ثم من قضاعة ، وحديث عطفت وأشفقت.
- ٢٦ - انظر أسباب الخلع: كتاب الشعراء الصعاليك ص ٩١ وما بعدها.

- ٢٧ - العصر الجاهلي: د. شوقي ضيف ص ٥٩ ، ٦٠ بتصريف.
- ٢٨ - المفضليات رقم القصيدة (١٠٤) ص ٣٥٤ / ٣٥٥ ، والحسد: الذين يحتشدون ويجتمعون للملمات. الشلل: الغرم والدية وغيرهما. يقول: نفعل ذلك كلما سللتنا مربة بعد مررة.
- ٢٩ - الأصميات: رقم القصيدة (٨) ص ٣٧.
- ٣٠ - شرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ص ٣٧.
- ٣١ - الشعراة الصعالية ص ١٠٣ - ١٠٢.
- ٣٢ - شرح القصائد العشر للتبريزي ص ٢٧٦ وما بعدها.
- ٣٣ - مهلهل: هو عدي بن ربيعة أخو كلبي ، وهو حال امرئ القيس وهو جد عمرو بن كلثوم من قبل أمه ، وزهير جده من قبل أبيه.
- ٣٤ - المفضليات ، رقم القصيدة (٥١).
- ٣٥ - المفضليات ، رقم القصيدة (١٢٨).
- ٣٦ - اختيارات الأعلم: ص ٤٢٢.
- أ - يسر: الداخلون في الميسر.
- ب - تفضل آراؤنا وسياستنارأي غيرنا ولا نخاف عند الروح بل نثبت ونتوفر.
- ج -- أي وجوهنا مشرقة ترتاح للكرم.
- ٣٧ - المعلقات العشر شرح التبريزي ص ٢٠٥ وما بعدها.
- ٣٨ - الأصميات رقم القصيدة (١٨).
- أ - يقول: هات عذراً لحي عدوان فيما فعل بعضهم بعض من القتل والتبعاد بعدما ما كانوا حية الأرض التي يحدوها كل أحد.
- ب - الإرقاء: الإبقاء على أخيك.
- ج -- القرص: ما يتجازى به الناس من إحسان وإساءة.
- ٣٩ - العصر الجاهلي: د. شوقي ضيف ، ص ٥٧ وما بعدها.

- ٤٠ - انظر المصدر السابق والشعر الجاهلي: د. يحيى الجبوري.
- ٤١ - اختيارات الأعلم القصيدة رقم (٣) ص ٢٠٢.
- ٤٢ - انظر الشعر والشعراء: ٣١١/١ لابن قتيبة.
- ٤٣ - انظر أيام العرب: يوم عين أباغ ص ٥١ محمد أحمد جاد المولى.
- ٤٤ - الأغاني ١٢٦/٢١ ط ساسي ، والشعر والشعراء ٣٩٤/١ لابن قتيبة ، والسدير قصر ازلملك ، وأسد خفية: الخفية غيبة يتخذها الأسد عرينة أو اسم علم لمأسدة بعينها.
- ٤٥ - انظر يوم أوارة الأول ص ٩٩ أيام العرب.
- ٤٦ - مقتوبينا: أي خدماً (المعلقة ص ٢٥٢ شرح التبريزي).
- ٤٧ - ديوان النابغة ، والأعلم في اختياراته ص ١٩٦.
- ٤٨ - أيام العرب ، يوم أوارة الثاني ص ١٠٠.
- ٤٩ - الشعر والشعراء ٢١/١ لابن قتيبة.
- ٥٠ - انظر الديوان (٧٦/٦٦) واختيارات الأعلم.
- ٥١ - انظر العصر الجاهلي: شوقي ضيف ص ٤٩ وما بعدها.
- ٥٢ - البداية والنهاية لابن كثير ٢٠٥/٢ وما بعدها.
- ٥٣ - الحيوان للجاحظ ١٤١/٣ وصلاح هنا مكة.
- ٥٤ - كتاب البلدان لابن الفقيه ، نقاً عن كتاب العصر الجاهلي: شوقي ضيف.
- ٥٥ - العصر الجاهلي.
- ٥٦ - انظر أيام العرب: حروب الأوس والخرج ص ٦٢ - ٨٥.
- ٥٧ - وانظر العصر الجاهلي: شوقي ضيف.
- ٥٨ - انظر الحياة العربية من الشعر الجاهلي ص ٢٣٠ وما بعدها ، والفروسيّة في الشعر الجاهلي الأول ، د. محمد أحمد الحوفي ، والثاني د. نوري القيسي.
- ٥٩ - العقد الفريد: ٢٠١،/٥

- ٦٠ - شرح الحماسة للتبيريني: ١٨١/١ نقاً عن الحياة العربية للحوفي.
- ٦١ - الكامل لابن الأثير ٢٦١/١ ، وأيام العرب ص ١٢٦.
- ٦٢ - ديوان سالمة بن جندل ص ٢١ ، نقاً عن الفروسيّة في الشعر الجاهلي.
- ٦٣ - شرح الحماسة للتبيريني ١/٥.
- ٦٤ - بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: محمود شكري الألوسي ٥٦/٢
- ٦٥ - العصر الجاهلي: شوقي ضيف ص ٦٢ وما بعدها.
- ٦٦ - ديوان زهير ص ١٠٢ ، والأعزل مفرد عزل: وهو من لا سلاح له ، فزعوا أغاثوا.
- ٦٧ - المرزوقي ٢/٨٢٥ نقاً عن العصر الجاهلي. نلحمه: نطعمه اللحم. الوتر: الثار.
- ٦٨ - المرزوقي ٢/٤٨٧ نقاً عن العصر الجاهلي.
- ٦٩ - الطرائف الأدبية ، شعر الأفوه الأودي ص ٢٢.
- ٧٠ - الفروسيّة في الشعر الجاهلي ص ٧٧ وما بعدها.
- ٧١ - شرح المعلقات العشر للتبيريني ص ٢٤٥ ، وما بعدها. يتذامرون: يحضر بعضهم بعضاً.
- ٧٢ - أشطان البئر: حباله (ويروى بشعرة نحره).
- ٧٣ - شرح القصائد العشر للتبيريني. الضرب: الخفيف خشاش فيه قوة ومضاء. بلت: ظفرت وتمكنت.
- ٧٤ - شرح المعلقات العشر للتبيريني ص ١٥١.
- ٧٥ - شرح المعلقات العشر للتبيريني ص ٢٨٨.
- ٧٦ - المصدر السابق. والفال: خرقة توضع تحت الرحي لاستقبال ما يطحن. اللهوة: القبضة من الحب. يبين: يظهر. الوتر: الثار. نجد: نقطع ويروى: نحر رؤوسهم في غير بر. الأرجوان: صبغ أحمر.
- ٧٧ - العصر الجاهلي: شوقي ضيف.

معالم

حول كتابة التاريخ الإسلامي

بقلم محمد العبدة

تزداد الحاجة يوماً بعد يوم إلى تنفيذ ما طرح من فترة غير قصيرة حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي ، بعد أن عاث به فساداً المستشرقون والمستغربون على حد سواء ، وهذا الشعور بالحاجة الملحة له أسباب نذكر بعضها:

١- إن الأمة التي لا تقرأ تاريخها ولا تستفيد منه في حاضرها ومستقبلها لهي أمة مقطوعة منبتة ، فالماضي ليس مفتاحاً لفهم الحاضر فحسب ، بل هو من أسس إعادة صياغة الحاضر ، ومقدمة (التاريخ يعيد نفسه) ليست خطأ من كل الوجوه ، وقد استخدم القرآن الكريم قصص الأمم السابقة للتأثير في نفوس الناس ، أو للتأثير في نفوس الذين لم تستكش فطرتهم، قال تعالى: ((ذلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرْآنِ نَقْصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَسِيدٌ)) [١٠٠] ، وقال تعالى: ((أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)) [يوسف: ١٠٩].

ولابد لأهل كل عصر من أن يواجهوا النوع ذاته من التعقيدات التي واجهها أسلافهم ، وإن سجل التاريخ ما هو إلا المنار الذي يبني الملاحين الجدد عن الصخور المهدلة التي قد تكون خافية تحت سطح البحر. ولو أن المسلمين في هذا العصر استوعبوا دروس الماضي لما أخطأوا في كثير من الأمور ، كما أن الدراسة المتأملة للحاضر تساعدنا أيضاً على فهم الماضي ، والذي جرب تقلبات الدول والمجتمعات وشاهد المؤامرات السياسية ، وعاين الركود الاقتصادي ، يكون أقدر على تفهم الحوادث الماضية التي ليست نسخة مطابقة للحاضر ولكن فيها شبه كبير فيه.

يقول المؤرخ ابن الأثير: (وأنه لا يحدث أمر إلا وقد تقدم هو أو نظيره في زداد الإنسان بذلك عقلاً ويصبح لأن يقتدي به أهلاً) (١).

والذي يشاهد ما تفعله بعض الدول الآن من استعانتها بعنصري أجنبية وتفضيلهم على الأقرباء والدين واللغة يدرك طرفاً من نظرية ابن خلدون في أن الدول إذا تمكنت تبعد عصبيتها الأولى وتعتمد على عصبيات مغلوبة ، من الخارج ، ويدرك المؤرخ عقم المحاولة التي قام بها الخليفة المعتصم العباسي لقوية دولته عندما جلب الأتراك فتحولوا إلى شوكة في حلق العباسيين ، وأصبح المسلم العربي كما قال المتنبي :

ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان

٢ - لئن كان التاريخ له أهميته و منزلته عند المتقدمين من العلماء حيث قام به أمثال ابن جرير الطبرى والبخارى وابن الأثير والذهبي ، وكتب السخاوى (الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ) لئن كان هذا فهناك علماء لهم رأى آخر ، فالغزالى يرى أنه من العلوم المباحة التي ليس فيها نفع دينوى ولا آخروى ، وأنه كالعلم بالأشعار التي لا سخف فيها (٢) وتابعه النووى في ذلك فقال في (الروضة) : (الكتاب يحتاج إليه لثلاثة أغراض: التعليم والتفرج بالمطالعة ، والاستفادة ، فالنفرج لا يعد حاجة كاقتناء كتب الشعر والتوارىخ ونحوها مما لا ينفع في الآخرة ولا في الدنيا) (٣).

وكان من نتائج هذه النظرة أن ضعف الحس التاريخي في العصور المتأخرة ، وفقدت خاصية التأمل والاستفادة من الحوادث ، وأصبح التاريخ قصصاً وروايات للتسلية والتفريج عن الهم والغم ومرتبته في العلوم تأتي في الدرجة الثالثة أو الرابعة ، ومجيء مؤرخ كبير كابن خلدون لم يغير هذه النظرة ، لأن الأمة كانت في حالة تدهور ثقافي ، ولم يظفر كتابه المهم في النقد التاريخي بالأهمية والمكانة المناسبة له.

وفي العصر الحديث تنبه المسلمون لما للتاريخ من أهمية بالغة ، وخاصة عندما يكون الجهد منصباً على (استئناف حياة إسلامية) ولذلك لابد من إعادة كتابة التاريخ الإسلامي.

٣ - إن ما كتبه علماؤنا قديماً ، وإن كان عملاً ضخماً ، قد حفظوا لنا فيه كل جزئيات وتفاصيل تاريخنا الإسلامي وجمعوا روایات كثيرة جداً ، إلا أن هذه الروایات تحتاج إلى غربلة وتمحیص لأن فيها الصحيح والضعيف بل والموضوع ، وقد ذكرروا لنا مصادرهم

حتى يعذروا ولا نحملهم المسئولية ، وما كتبه المحدثون إنما نسجوا فيه على منوال المستشرقين الذين اهتموا اهتماماً زائداً بالتاريخ الإسلامي لغاية في أنفسهم وكان لهم منهج خاص في البحث والتنقيب ، ولهم منهج في تفسير النصوص أكثره تهويل ، يأتون فيه بالغرائب والعجبات ، وذلك بتصورهم عن فهم اللغة العربية وفهم حركة التاريخ الإسلامي ، بالإضافة إلى النية المبيتة لتشويه التاريخ الإسلامي ، وأعجب بهم المستغربون وأصبحت المعادلة عندهم: ما دام هؤلاء يتقصون هذا التقصي في تفسير النصوص ومدلولاتها فلا بد أن يكونوا محايدين.

ووقع المسلمون بين قديم ينظر له باحترام وإنصاف ولكنه لم ينق من الروايات المكذوبة وبين ما كتبه المستشرقون وتلامذتهم وفيه ما فيه من دس وافتراء متعمد.

٤- استغل أصحاب الاتجاهات المنحرفة بعض الروايات الضعيفة أو الموضوعة في الموسوعات التاريخية القديمة أو تحليلات المستشرقين المشوهة ، استغلوا هذا في المدارس والجامعات وغرسوا في نفوس الشباب المتعلم أن تاريخنا لا يعود أن يكون أحدثاً دموية يتلو بعضها بعضًا وأنه إذا استثنينا الخلفاء الراشدين ، بل إذا استثنينا فترة أبي بكر وعمر - رضي الله عنهم - فكل تاريخنا صراع على الحكم وترف وفساد في القصور.. وعظمت المصيبة بأمثال هؤلاء ، والمتعلم الناشئ يتاثر بما يقال له ، وأصبح الشباب في حيرة واضطراب ، فعندما يسألون عن كتب التاريخ لترشدهم إلى الحقيقة لا يجدون أمامهم إلا كتب الموسوعات الكبيرة التي من الصعب على أمثالهم الرجوع إليها ، أو الكتب المعاصرة وفيها من الجهل والتشويه الشيء الكثير ، وبذلك أيضاً عظمت التبعة على المسلمين وبدأ المخلصون في الصدي لهذا التيار فكتبت دراسات حول هذا الموضوع (٤) ، وصنفت كتب في التاريخ الإسلامي ، هي أفضل بكثير مما كتب في المرحلة السابقة (٥) ، ولكن كتابة التاريخ الإسلامي هي أكبر من هذه الجهود ، ولا تزال بحاجة إلى توضيح وبيان ، وصياغة جديدة ، والدخول في التفصيات بعد التعميمات.

وهذا المقال محاولة من هذه المحاولات لعله يكون وغيره ارهاصاً بين يدي كتابة التاريخ الإسلامي من جديد إن شاء الله.

التفسير الإسلامي للتاريخ:

يلح القرآن الكريم - لمن تدبره وعقله - على أهمية السنن التي وضعها الله سبحانه وتعالى لهذا الكون ، ولتسير فطرة الإنسان عليها ، وهذه السنن صالحة ، صلحاً شاملأ لأنها غير مقيدة بالزمان أو المكان ، ويعتقد المسلمون أن تاريخ الأمم وأيام الله في أهل طاعته وأهل معصيته ما هي إلا تفاصيل لجزئيات هذه السنن وعرفنا الله سبحانه من الأسباب الكلية للخير والشر (٦).

إن حوادث التاريخ هي من صنع الإنسان حقيقة ، ولكنها تجري حسب حكمة الله وعلمه ومشيئته المطلقة في توجيه شؤون البشر ((وَتُلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)) [آل عمران: ١٤٠] ، كما أن الإنسان عندما يفعل الخير أو الشر له مشيئه حقيقة بها يحاسب ويجازى والله خلقه وخلق مشيئته ، قال تعالى: ((ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)) [الروم: ٤].

((فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكْرُوا بِهِ فَتَحَنَّا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)) [الأنعام: ٤].
((إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ)) [الرعد: ١١].

والله سبحانه وتعالى يحب دفع الشر في الأرض وهو من سننه الكونية ، كما قال: ((وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ)) [البقرة: ٢٥١].

ولكن هذا الدفع يجب أن يقوم به أولياؤه المتقون ، فيجاهدون في سبيله ، فإذا لم يقوموا به لم يندفع ، وعندئذ تتحول الحياة البشرية إلى مستنقع آسن من الشرور.

وإذا كان الغرب ومؤرخوه قد تنقلوا بين نظريات كثيرة لتعليق أحداث التاريخ ، ما بين التأكيد على الجانب الغيبي (٧) ، وما بين بروز النزعات المادية كالتفسير القومي (٨) أو التفسير المادي (٩) ، كما ظهر التفسير التشاوخي عند (اشبنجار)(١٠) ، ونظرية التحدى عند (توبينبي)(١١) ، هذه النظريات وإن كان في بعضها شيء من الحق (١٢) إلا أن

التفسير الإسلامي للتاريخ يختلف ابتداءً عن النظرة الغربية لأنَّه ينطلق في الأصل من تكريم الله للإنسان ، وأنَّ الله خلق هذا الإنسان لعبادته ، وسخر له كلَّ ما يحتاجه لعمارة هذه الأرض ، وأرسل الأنبياء وأنزل الكتب ليكون أبلغ في العذر ، وهذه الحياة الدنيا مؤقتة ، والحياة الأخرى هي الباقية، وأوج الحضارة عند المسلم هو عندما يحقق ما يريده الله منه، وما خلق من أجله ، وعندئذ يكرم بالاستخلاف في الأرض ، وليس قمة الحضارة بقدر ما يمتلكه من الأشياء وأدوات الترف والغنى والرفاية والتدمير.

إنَّ محور التفسير الإسلامي للتاريخ هو: إنَّ ما يقع من الحوادث إنما يخضع لسفنِ الإلهية، كونية أو دينية ، وإنَّ ظاهر التدين أصيلة قوية في الإنسان بالفطرة التي خلقه الله عليها، فهو يتجه إلى الدين ولكنَّ شياطين الإنس والجن يجتالونه عن هذه الفطرة فيغير ويدل. ومن هذه السنن:

- ١ - إنَّ الدولة الكبرى أو الحضارات لا تقوم إلا بدين أو ببقايا دين.
- ٢ - سنة دفع الله الناس بعضهم بعض ومداولة الأيام بينهم ليتبين الحق ويظهر الخير.
- ٣ - زوال الأمم وهلاكها بالترف والفساد وعدم إقامة العدل.
- ٤ - الناس مسؤولون عن رقيهم وانحطاطهم.
- ٥ - استحقاق النصر للمؤمنين.

وستتكلَّم عن كلَّ واحدة من هذه السنن بشيء من التفصيل.

أولاًً - من الملاحظ أنَّ محلَّ الدراسة التاريخية في القرآن الكريم ليس المقصود بها شعباً معيناً أو دولة معينة بقدر ما هو مقصود: ما هو دين هذه الأمة وما هي عقידتها؟ وما موقفها من الرسل والأنبياء؟ فالتركيز على (الملة) باعتبار أنَّ ظاهرة التدين هي الأصل في الإنسان قال تعالى: ((إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرٌ هُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزُنُونَ)) [البقرة/٦٢] ، فالحديث هنا عن (ملل) معينة وليس عن شعوب أو دول ، وعندما يذكر القرآن الحوادث التي وقعت لبني إسرائيل يسردها دون ترتيب زمني ؛ لأنَّ المقصود أن

هذه الأمة (يهود) لها صفات معينة ، وهذا واضح من سيرتهم مع نبيهم موسى -عليه السلام- ، وقد امتن الله على اليهود المعاصرين لفجر الدعوة الإسلامية بنعمة أنعمها على آبائهم ، وذلك لأنهم أمة واحدة ، وقصص الأنبياء في القرآن هي قصة الصراع بين التوحيد وبين الوثنية والأمة الإسلامية يقابلها الأمم النصرانية أو المجوسية.. وقد فرح المسلمون في مكة ببشرة القرآن لهم بانتصار الروم على الفرس ، لأن الروم أهل كتاب فهم أقرب من المجوس.

وتركيز القرآن على هذه الناحية يؤكد أن الدين هو العامل الفعال في تكوين الحضارات والدول الكبرى سواء كان هذا الدين حقاً كما أنزله الله سبحانه وتعالى أو قد حرف وبدل، المهم هو أن فكرة التدين أو التطلع الغيبي هي التي تعطي الحماس والجذب والعاطفة التي تحتاجها الدول في إبان تأسيسها ، وقد خلق الإنسان متديناً بفطرته ، بالعهد الذي أخذ عليه ((أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى)) بل لا يوجد شعب مهما كان موغلًا في الهمجية إلا وتطلع إلى الغيبات ، (وإن الغريزة الدينية المشتركة بين كل الأجناس البشرية لا تختفي بل لا تضعف إلا في فترات الإسراف في الحضارة وعند عدد قليل جداً من الأفراد)(١٢).

يقول المفكر الجزائري مالك بن بنى: (فالحضارة لا تبعث - كما هو ملاحظ - إلا بالعقيدة الدينية ، وينبغي أن نبحث في كل حضارة من الحضارات عن أصلها الديني ، وكأنما قدر للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية)(١٣) ، ويقول تويني: (والتحول الديني كان حقيقة مبدأ كل شيء في التاريخ الانكليزي)(١٤).

وهنا يشار سؤال: كيف تقوم دول كبرى على الوثنية الممحضة وليس فيها أي أثر للدين، كالدول الشيوعية في هذا العصر ، والجواب كما قال مالك بن بنى: (هذا الخطأ الشائع إنما يأتي أولاً من تفسير أصول الشيوعية باعتبارها حضارة ، وثانياً إننا نعتبر الشيوعية (أزمة) للحضارة الغربية المسيحية)(١٥). وهذا التفسير ليس غريباً ، فقد ذكرت قبل قليل أن نزعة الدين لا تخلو منها أمة من الأمم إلا في فترات استثنائية ، ولا بن تيمية كلام يقرر

فيه شيئاً من هذا ، يقول - رحمه الله - بعد كلام عن الأنبياء وفضلهم على البشرية: (ويقال هنا: إنه ليس في الأرض مملكة قائمة إلا بنبوة أو آثار نبوة وأن كل خير في الأرض فمن آثار النبوات ولا يسترiven العاقل في الأقوام الذين درست النبوة فيهم كالبراهمة والمجوس) (١٦) ، كما يقرر ابن خلدون المعنى نفسه حيث يقول: (الدول العامة الاستيلاء ، العظيمة الملك أصلها الدين إما من نبوة أو دعوة حق) (١٧).

ونحن يمكننا أن نضيف على كلام ابن خلدون: أو (بفكرة) تبلغ عند أصحابها مبلغ التقديس للديانات ويتغافلون في تطبيقها ، وهذا من ناحية نفسية لا من ناحية تاريخية ، وهذه الحضارات والدول وإن قامت ابتداء على الدين إلا أنه مع تطاول الزمن والإسراف في الحضارة يبدأ الفساد ينخر فيها ولا بد إذن من مبدأ الدفع الذي سنه الله سبحانه وتعالى.

ثانياً - إن مبدأ الصراع بين الأمم ليظهر الخير ويخفف من الشر هو من أعظم السنن الكونية ، قال تعالى: ((وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بِعَضَهُمْ بِعَضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعٌ وَبَيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا) [الحج: ٤٠] ، وقال تعالى: ((وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بِعَضَهُمْ بِعَضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) [البقرة: ٢٥١].

فالأرض تفسد إذا طال فيها مكث الطواغيت وحكوماتهم الفاسدة ، ولم يقم من يجاهدهم ويدفع فسادهم ويريح العباد والبلاد منهم ، والله ذو فضل على الناس أن جعل هذه السنة من سننه الكونية حتى تتطهر الأرض بين كل فترة وأخرى ، كما أن هذا الصراع يرمي إلى تقوية المؤمنين ، فيزداد نشاطهم ويتحققوا ما يريد الله منهم ، يقول ابن تيمية شارحاً الآية السابقة:

(وقد بعث الرسل بتحصيل المصالح وتكميلاً لها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، فهدم صوامع النصارى وبيعهم فساد ، إذا هدمها المجرم والمشركون ، وأما إذا هدمها المسلمون وجعلوا أماكنها مساجد يذكر فيها اسم الله فهذا خير وصلاح ، فالله سبحانه

يدفع شر الطائفتين بخيرهما كما دفع المجروس بالروم والنصارى ثم دفع الصارى بالمؤمنين (١٨).

ويقول أحد المؤرخين الغربيين (هوايتهد): (إن صراع العقائد والمذاهب ليس كارثة بل فرصة).

إن المنطقة العربية - وبلاد الشام خاصة التي بارك الله فيها - من مراكز الصراع الكبرى في العالم حتى يتبيّن الحق والباطل ويتمحص أهلها ويأخذوا أجر الدفع والجهاد في سبيل الله ، قال تعالى ذاكراً بلاد الشام: ((سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ)) [الإسراء: ١] ، وقال: ((وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعِفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا)) [الأعراف: ١٣٧] ، وبنوا إسرائيل أورثوا مشارق ومجارب بلاد الشام ، وقال تعالى ذاكراً إبراهيم - عليه السلام -: ((وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ)) [الأنبياء: ٨١] ، وإبراهيم إنما نجاه الله ولوطاً إلى أرض الشام.

وعن أبي الدرداء قال: (سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول: «يوم الملهمة الكبرى فسطاط المسلمين بأرض يقال لها: الغوطة ، وفيها مدينة يقال لها: دمشق خير منازل المسلمين يومئذ) (١٩).

وعن خريم بن فاتك الأستدي قال: (أهل الشام سوط الله في الأرض ينتقم بهم من يشاء ، كيف يشاء) (٢٠).

كما ورد في الحديث الصحيح: «إذا أحب الله قوماً ابتلاهم» (٢١).

وعلى أرض الشام ومصر قام الصراع بين المسلمين والصلبيين ، فكان لهم فضل رد هؤلاء الغزاة عن كل بلاد المسلمين ، وعلى أرض الشام هُزم التتار لأول مرة بعد زحفهم المدمر على بلاد الإسلام.

وفي العصر الحديث ابتليت باليهود وبكل الحاقدين على الإسلام ، فهي في صراع مستمر حتى يميز الله الخبيث من الطيب ويتحذذ منه شهداء ، والذي ينظر بعين البصيرة

إلى تجمع اليهود من كل أنحاء العالم ، يشعر وكزنهم يساقون سوقاً إلى هذه المنطقة ، بل استطاعوا جرّ أمريكا وأوربا وراءهم لتصبح من المراكز الحساسة جداً في السياسة العالمية. يقول الدكتور زين نور الدين زين: (ربما ليس هناك بقعة أخرى في الدنيا كلها وقعت حروب على أرضها وعبرت شعوب ثم عادت لتعبر ثانية فوق أرضها كمنطقة الشرق الأدنى ، فهذه المنطقة كانت أبداً ساحة معركة للجيوش ، كما أنها كانت معتراً لل الفكر) (٢٢) ، ويقول أيضاً: (إن المشاكل الحديثة التي جدت في المنطقة بعد الحرب العالمية الثانية تدفع بالمرء أحياناً إلى الاستنتاج أن القدر ذاته كان منذ فجر التاريخ يلعب دوراً حاسماً في مصير الشرق الأدنى وأنه مكتوب على شعوب هذه المنطقة أن تعيش في حالة مستمرة من التوتر والنزاع ، ومنذ سقوط الإمبراطورية العثمانية لم تحسن قط في هذه البقعة من الدنيا قضية واحدة حسماً نهائياً) (٢٣).

ويقول الدكتور ج.س.بادو: (مادام هناك ثمرة شهية متسلية من شجرة فإن قطافها سيغوي أحد الناس وهذا هو السر في تورط منطقة الشرق الأدنى في الشؤون العالمية) (٢٤). والمنطقة ليست ثمرة شهية للغرب والشرق من ناحية الشروات الطبيعية فقط بل لأنها مركز الصراع الحضاري فالغرب يعتبر (إسرائيل) امتداداً حضارياً له ، وهو في صراع مع المسلمين فلا بد إذن من مساعدة اليهود.

إن كثرة ذكر القرآن لليهود وتخسيصهم بالذكر هم والنصارى في سورة الفاتحة ليدل على أن الصراع بين المسلمين وبين هاتين الفتتىين سيكون صراعاً طويلاً ، كما يدل على أثر هاتين الفتتىين في الأحداث العالمية ، ومن يقرأ الكتب التي تتحدث عن أثر اليهود في السيطرة على كثير من المؤسسات والدول واستخدامهم - في سبيل ذلك - المال والنساء والصحافة والواجهات من جمعيات وأحزاب ذات لافتات براقة ، من يقرأ هذا يشعر بأنهم يتلاعبون بالشعوب والأمم السادرة في غيها وضلالها ، ومع أن هناك صيحات تحذير من هنا وهناك ممن عرفوا حقيقة مكرهم وتخطيطهم من وراء الستار ، وأنهم هم

سبب الكثير من الأزمات ، الاقتصادية والسياسية ، إلا أن هذه التحذيرات لم تعرقل أو تؤخر من سيطرتهم.

وأما الدول التي تسمى نفسها بالاشراكية فهي ليست إلا ثمرة من ثمار اليهودي (ماركس) ومن ثمار المادية الأوروبية.

إن التفسير القرآني للتاريخ بمدافعة الأمم بعضها بعضاً هو أعم وأشمل من نظرية (التحدي) عند المؤرخ الانكليزي (تويني) التي هي صادقة في جانب من جوانب التاريخ الإنساني ، فإن تعرض أمة لخطر خارجي أو داخلي قد يظهر من طاقات أبنائها ما كان خامداً ، فإن وقت الأزمات والمصائب هو الوقت الذي يفكر فيه الناس بالتغيير ، ولكن أين هذه النظرية من تفسير القرآن الذي هو عملية مستمرة وصراع دائم بين الخير والشر ليتغلب الخير أو يخفف من الشر.

ثالثاً - ومن سنته تعالى في البشر أن الأمم التي تبطر معيشتها ، وتعيش في الترف وتهمل في الملذات ، وتقارف لآثام والذنوب ، لابد أن يصيبيها العقاب إن آجلاً أو عاجلاً وسواء كان عذاباً مادياً حسياً أو عذاباً معنوياً.

قال تعالى: ((وإِذَا أَرَدْنَا أَن نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمْرَنَا مُتَرَفِّهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا القَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا)) [الإسراء: ١٦] فهلاك القرى إنما يجيء بعد وجود طبقة المترفين الذين يفسقون فيها ، والأمر هنا هو أمر قدرى كوني ، ولا داعي لتأويلها بأن الله سبحانه وتعالى أمر المترفين بأن يقيموا حدود الله فلم يقيمواها فحق عليهم القول ؛ لأن المترفين في الاصطلاح القرآني قد فسّدت فطرتهم فلا يستحقون هذا التكريم (٢٥).

وقال تعالى: ((وَلَوْ يُؤَخِّذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهِيرَهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا)) [فاطر: ٤٥].

وقال: ((وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُمَنَّ عُلُواً كَيْرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعْثَنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بِأَسِ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولاً)) [الإسراء: ٤-٥].

وقال تعالى: ((وَكُمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)) [الإسراء: ١٧].

((وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)) [الأعراف: ٩٦].

وقد ثبت في الصحيحين لما نزل قوله تعالى: ((قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فُوْقِكُمْ)) قال - صلى الله عليه وسلم - : «أَعُوذُ بِوْجَهِكَ» ((أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكَ)) قال: «أَعُوذُ بِوْجَهِكَ» ((أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)) قال: «هَاتَانِ أَهُونَ» (٢٦).

فعداب التفرق والتحزب هو من العذاب الذي يصيب المسلمين كما يصيب غيرهم ، بل ربما كان في المسلمين أشد ، لأن هذا من عذابهم في الدنيا ، وقال - صلى الله عليه وسلم - : «ما ظهر في قوم الربا والزنا إلا أحلوا بأنفسهم عقاب الله» (٢٧).

وَمَا هَذِهِ الْأَمْرَاضُ الْفَتَاكَةُ الَّتِي تَظَاهِرُ بَيْنَ الْفَيْنَةِ وَالْأُخْرَى وَتَسْتَعْصِي عَلَى الْطَّبِّ وَالْأَطْبَاءِ ،
إِلَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ لِهَذِهِ الْأُمَمِ الَّتِي انْغَمَسَتْ فِي حَمَّةِ الرَّذِيلَةِ وَمَا هَذَا الْقَتْلُ الْمُسْتَمِرُ بَيْنَ
النَّاسِ لَا يَدْرِي الْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فَيْمَ يَقْتَلُانِ ، وَمَا هَذِهِ الْزَّلَازِلُ الْمَدْمُرَةُ فِي لَحْظَاتٍ وَثَوَانٍ
إِلَّا مِنْ عَقَابِ اللَّهِ الظَّاهِرِ وَالْخَفِيِّ .

يقول ابن تيمية مطبقاً هذه القاعدة على التاريخ الإسلامي: (وقد أصاب أهل المدينة ٢٨) من القتل والنهب والخوف ما لا يعلمه إلا الله ، وكان ذلك لأنهم بعد الخلفاء الراشدين أحدثوا أعمالاً أوجبت ذلك، وكان على عهد الخلفاء يدفع الله عنهم بإيمانهم وتقواهم . ٢٩)

وجاء في (سير أعلام النبلاء) تعليقاً على الأحداث التي جرت في مكة بين جيش يزيد بقيادة الحسين بن نمير السكوني وبين جيش عبد الله بن الزبير: (دخل عبد الله بن عمرو المسجد الحرام والكعبة تحرق حين أدبر جيش حسين بن نمير، فوقف وبكي وقال: أيها الناس ، والله لو أن أبا هريرة أخبركم أنكم قاتلوا ابن نبيكم

(الحسين بن علي) ومحرقوا بيت ربكم لقلتم: ما أحد أكذب من أبي هريرة ، فقد فعلمتم فانتظروا نعمة الله فليلبسونكم شيئاً ، ويديق بعضكم بأس بعض)(٣٠). وأما ما حل بالأمم السابقة بسبب فساد أخلاقها فهو معروف مشهور وأكبر مثال على ذلك ما حل بالدولة الرومانية ، فقد سقطت أمام جحافل الزاحفين عليها وكأنها لم تكن والفساد والبطر الذي تمارسه أوربا في هذا العصر حدا بالعقلاء منهم إلى إرسال صيحات الإنذار والخطر ، ويقول ألكسandr كاريل: (وهذا هو السبب في أن الأسر والأمم والأجناس التي لم تعرف كيف تميز بين الحلال والحرام تتحطم في الكوارث ، فمرض الحضارة وال الحرب العالمية نتيجةتان ضمنيتان لانتهاك حرمة التواميس الكونية)(٣١).

وكاريل يتحدث عن مرض الحضارة قبل الحرب العالمية وبعدها بقليل ، فكيف لو شاهد قمة التفسخ الأخلاقي والاجتماعي الذي يعيشه الغرب الآن. وهذا ما حدا أيضاً بمؤرخ كتوينبي أن يطلب من الغرب إعادة الدين إلى قوته الأولى وإيقاف جبروت العلم (٣٢). رابعاً - ومما هو قريب من السنة السابقة: أن الناس هم المسؤولون عن رقيهم وانحطاطهم ، قال تعالى: ((إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ)) [الرعد: ١١] ، فالتغير يجب أن يبدأ من الإنسان ، والله سبحانه وتعالى ييسر له السبل التي يريدها والأمة التي تعيش فيها الأفكار الميتة والأناانية والبغض والحسد ، وقد ركنت إلى الكسل والخمول ، هذه الأمة لا يمكن أن تنتج تقدماً أو شيئاً يذكر بل إن حكماً علمانياً يمكن أن يستمر ويزدهر بالاتحاد والعدالة أكثر من حكم أدعية الإيمان إذا ما ركوا إلى الأخلاق المنحلة وإلى الفوضى والعصيان (٣٣).

لقد نقل الإسلام العرب نقلة بعيدة غيرت ما بأنفسهم تغييرًا شاملاً وجذرياً ، وكل الأفكار القاتلة من عصبيات وخرافات وعقائد ساذجة مضحكة ، كل هذا تغير بعقيدة التوحيد الواضحة الشاملة لكل مناحي النفس الإنسانية وعندئذ استطاعوا تغيير ما بأنفس الأمم الأخرى ، لقد بدأ التغيير بكلمة ((اقرأ)) ورجل الفطرة الذي لم تفسده الفلسفات الباردة أو التراث المرادي ، إن تدبر القرآن الكريم والسنّة النبوية كفيلان بتغيير ما بالنفس من

أمراض ليعود رجل الفطرة إلى دوره في السير على هدى الله ويحقق ما خلق من أجله. وإن تغيير ما بالنفس ليس عملية عملية صعبة فهذه أمم في العصر الحديث استطاعت أن تنهض من كبوتها بسبب وجود الإنسان الذي أكتملت فيه الشروط النفسية للتغيير ، وليس بسبب وجود المادة وتراكمها ، وأكبر مثال على ذلك ما فعله الشعب الألماني الغربي بعد الحرب العالمية الثانية ، وكيف عمر بلده بعد أن أصبح خراباً بسبب الحرب ، ورجعت ألمانيا كأقوى الدول الغربية اقتصادياً ، وصدق فيهم ما قاله الصحابي عمرو بن العاص عن أجدادهم الروم: (وأسرع الناس إفاقه بعد مصيبة) (٣٤) ، وعندما يغیر المسلمون ما بأنفسهم سيأخذ الله سبحانه وتعالى بأيديهم ، لأن هذا وعده ومن أصدق من الله قيلاً.

خامساً - في صرح الحق والباطل سينتصر الحق في النهاية وإن انتفشت الباطل وعرى في البداية ، وهذه سنة نلاحظها في تفاصيل الحياة اليومية كما نلاحظها في الأحداث الكبار ، قال تعالى: ((أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدْرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَاداً رَّابِيَاً وَمَمَا يُوَقِّدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةً أَوْ مَتَاعً زَبَدٌ مَّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَمَمَا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ)) [الرعد: ١٧].

يقول ابن قتيبة شارحاً هذه الآيات: (هذا مثل ضربه الله للحق والباطل يقول: الباطل وإن ظهر على الحق في بعض الأحوال وعلاه ، فإن الله سيمحقه ويبطله ، و يجعل العافية للحق وأهله ، ومثل ذلك مطر جود أسال الأودية بقدرها (٣٥) ((فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَاداً رَّابِيَاً)) أي عالياً على الماء كما يعلو الباطل تارة على الحق ، وكذلك المعادن إذا دخلت الكير يوقد عليها فيعلوها مثل زيد الماء ثم قال: ((فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً)) أي يلقيه الماء عنه فيتعلق بأصول الشجر وجنبات الوادي ، وكذلك خبث الفلز يقذفه الكير ، فهذا مثل الباطل ((وَمَمَا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ)) فهو مثل الحق (٣٦).

وال المسلمين هم أحق الناس بهذه السنة وإذا تأخر عنهم فلأمر ما في نفوسهم ، أو لأنه لم تتمحص صفوفهم وكيف لا ينصرهم الله سبحانه وهم أولياؤه ، وهل يستوي المجرمون

وال المسلمين ، وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «نصرت بالرعب مسيرة شهر» وهذا الكلام ليس من باب ((نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)) ، فهذه لا يفكر فيها المسلم ولكنها من باب وعد الله الصادق بنصر المؤمنين عندما يكونون مؤمنين فعلاً ، قوله و عملاً ، وليس من قبيل الأماني ويجب أن يعتقد من تأخر عنه النصر والتمكين أنه ما تأخر إلا لسبب أو لأسباب ، فلا يلوم من إلا نفسه ، ولا يضع المعاذير لنفسه ويلقي بالتبعية على غيره.

للبحث صلة.

الهوا ملخص:

- ١ - السحاوي: الإعلان والتوبیخ لمن ذم التاريخ / ٢٣,
- ٢ - انظر السحاوي: الإعلان والتوبیخ / ٢٣,
- ٣ - المصدر السابق / ٤٩,
- ٤ - من الكتب الجيدة التي ألفت ما كتبه الدكتور محمد رشاد خليل في (المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره).
- ٥ - من رواد هذه المرحلة التي تأثرت بالمستشرقين: حسن إبراهيم حسن وأحمد أمين ومن تأثر بهم من تلامذتهم.
- ٦ - انظر: ابن القيم: الجواب الكافي / ٢٢ ، ودراسات في حضارة الإسلام لجب/ ١٥٢,
- ٧ - يقول (نيبور) و (مارتيان): إن هدف التاريخ يقع خارج التاريخ. انظر: ادوار كان: ما هو التاريخ/ ٨٢,
- ٨ - الذي يقول بأن هناك مميزات خاصة لجماعات خاصة من البشر.
- ٩ - الذي قال به ماركس ، وقد أخذه عن هيغل الذي يقول بتناقض الحضارات وأن كل حضارة تحمل في داخلها تناقضاً وهذا التناقض يصطدم مع ضده فينتج شيئاً ثالثاً ، وهكذا فالعالم يتوجه إلى الروح الكلية! حور ماركوس هذه النظرية وقال: إن طرق الإنتاج

هي التي تعين طرائق التفكير ، وهكذا يستمر صراع الطبقات حتى ينتهي الأمر أخيراً إلى حكم طبقة العمال ، انظر لويس جودشك: *كيف نفهم التاريخ / ٥٤٩*

١٠ - يرى هذا المؤرخ أن الحضارة كإنسان تماماً ، ولابد أن تمر بفترة النشوء والشباب ثم الهرم فالفناء محتم عليها.

١١ - يفسر (توبيني) الحضارة بأنها: رد معين يقوم به أحد الشعوب أو الأجناس في مواجهة (تحدى) معين ، والطبيعة بالخصوص - أي الجغرافيا - هي التي تقوم بهذا التحدي ، وحسب مستوى التحدي وفعالية الرد تقوم حضارة هذا الشعب إما بالتقدم واللّوثب إلى الأئم ، أو الجمود ومن ثم الفناء. انظر: *(شروط النهضة لمالك بن نبي / ٨٨)*.

١٢ - محمد عبد الله دراز: *الدين / ٨٤*

١٣ - *شروط النهضة / ٦٧* - ط. مكتبة دار العروبة بالقاهرة.

١٤ - مختصر دراسة للتاريخ / ١ / ٥

١٥ - *شروط النهضة / ٧٣*

١٦ - *الصارم المسلول / ٢٥٠*

١٧ - المقدمة / ٢ / ٥٢٦ ، نشرة علي عبد الواحد واقي.

١٨ - *الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح / ١ / ٢٧١*

١٩ - أخرجه أبو داود / ٢ / ٢١١ ، والحاكم وأحمد ، انظر فضائل الشام للربعي / ٣٨ - بتحقيق الألباني.

٢٠ - قال الألباني في تعليقه على مناقب الشام لابن تيمية: إسناده صحيح وهو موقوف.

٢١ - *صحيح الجامع الصغير / ١ / ١٣٩*

٢٢ - *الصراع الدولي في الشرق الأوسط / ١٤*

٢٣ - المصدر السابق / ١٨١ . والمؤلف في تعبيراته (الشرق الأدنى) أو (الإمبراطورية) متأثر بسمسيات الغربيين لتاريخنا.

٢٤ - المصدر السابق / ٢٠

- ٢٥ - وقد يوضح هذا الأمر الكوني تفسيران: ١ - أن (أمرنا) هنا بمعنى كثرنا من أمر المال ، يأمر إذا كثر ، يقال: خير المال سَكَّةٌ مأبورة ، أو مهرة مأمورة ، فالمأمور: الكثير الولد ، والسكة: السطر من النخل ، والمأبورة: المصلحة.
- ٢ - ومن القراءات في الآية: أمرنا مترفيها ، أي أصبحوا هم الأمراء حتى يحق عليها القول ، فالله يريد أن يهلك هذه القرية لفسادها ، فكانت كثرة المترفين أو وجودهم كأمراء هو السبب المباشر. والتفسيران يرجعان إلى أن الأمر قدرى كوني ، وهو اختيار ابن تيمية -رحمه الله-. انظر الأimalي لأبي علي القاري ١٠٣/١ . ط. دار الشعب.
- ٢٦ - فتاوى ابن تيمية ٣/٢٨٥.
- ٢٧ - صحيح الجامع الصغير ٥/١٤١ ، قال عنه الألباني: حسن.
- ٢٨ - يعني بذلك: وقعة الحرة عندما ثار أهل المدينة على يزيد بن معاوية.
- ٢٩ - الفتاوى ١١٤/١١.
- ٣٠ - الذهبي: سير أعلام النبلاء ٣/٩٤.
- ٣١ - تأملات في سلوم الإنسان ١/٤ - نشرة جامعة الدول العربية.
- ٣٢ - تويني: الإنسان وأمه الأرض. انظر: زكي محمود - هذا العصر وثقافته / ٢٧.
- ٣٣ - انظر ما كتبه الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه: (دستور الأخلاق في القرآن) حول هذا الموضوع ، وما كتبه الأستاذ جودت سعيد حول سنن تغير ما بالنفس في كتابه (حتى يغيروا ما بأنفسهم).
- ٣٤ - مختصر صحيح مسلم للمنذري. تحقيق الألباني/٢٩٦.
- ٣٥ - أي: الكبيرة على قدره ، الصغيرة على قدره.
- ٣٦ - ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن ٣٢٦ - تحقيق: سيد صقر.